Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى ذلك الوقت كانت عندنا مسابقة للفلسفة – هذه المسابقة لطلبة التوجيهية ، ودخلت مسابقة الفلسفة ، وجاء ترتيبى الأول فى مصر .

ولكن قبل ذلك وجدت كتابا فى هذه المكتبة هو أيضا نقطة تحول نهائية . فبعد هذا الكتاب وبسببه ، أو بسبب استعدادى ومزاجى النفسى والعقلى والاجتماعى ، تحدد تماما أننى سوف أدرس الفلسفة . الكتاب اسمه « قصة الفلسفة اليونانية » تأليف الأستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود . وعرفت فيما بعد من الأستاذ زكى نجيب محمود أنه هو الذى كتبه ، وأن الأستاذ أحمد أمين لم يكتب فيه حرفا واحدا . ولكن كانت الوسيلة الوحيدة لنشر هذا الكتاب هو أن يوضع اسم الأستاذ أحمد أمين ، لأنه هو صاحب المطبعة والناشر وصاحب مجلة « الثقافة » ..

فهذا الكتاب مختلف تماما عن كل كتاب قرأته عن الفلسفة اليونانية بعد ذلك . ولم تكن الكتب التى قرأتها كثيرة . إنها لم تتعد الكتاب المقرر علينا ، وكتابا آخر من تأليف الأستاذ يوسف كرم ، وبعض المقالات فى المجلات ، وبعض الكتب فى علم الكلام والتصوف ..

ولكن الكتاب مختلف فى كل شىء : ابتداء من الغلاف الأزرق إلى الصور والورق المصقول المتشابك بعضه فى بعض . والذى يجب أن أفصله بالسكين . ولكن الذى بهرنى هو الشىء الذى أبحث عنه : سهولة العبارة . الوضوح . الجمال . البساطة . الإقناع . لاأعرف كيف أصف فرحتى بهذا الكتاب . ولاكيف اكتشفت أن هناك أناسا آخرين غير الأستاذ العقاد عندهم هذه القدرة المتواضعة على الجمال والإقناع . وعرفت فيما بعد أن الكتاب قد اعتمد فى الدرجة الأولى على كتاب آخر هو « قصة الفلسفة » للكاتب الأمريكى ول ديورانت . وهو أقدر مؤلفى التاريخ الأدبى والفلسفى على التبسيط الجميل . بل لم أجد أحدا أروع منه .

وإذا كان الذى كتبه الأستاذ يوسف كرم فلسفة ، فإن الذى كتبه الأستاذ زكى نجيب محمود هو الأدب الفلسفى . أو هو تأديب الفلسفة . أى أنه من الممكن أن يكون الإنسان فيلسوفا وأديبا فى نفس الوقت . بل إن كل صاحب أدب هو صاحب فلسفة . وليس العكس . فليس أرسطو العظيم أديبا . إنما هو فيلسوف وله نظريات فى الأدب والنقد . ولكنه ليس جميل العبارة مثل أستاذه أفلاطون . ولابارع الحوار مثل أستاذهما سقراط ..

ولكن هل الذى وجدته فى كتاب الأستاذ زكى نجيب محمود هو بالضبط ما أريد ؟ لقد وجدتها – أى وجدت نفسى !

ولكن لاشىء يفسد أى كتاب مهما كان ممتعا إلا أن يكون مقررا عليك . أى إلا أن تجد نفسك مرغما على قراءته وعلى حفظه .. وهنا يكون الجمال قبحا ، وتكون العبارة السلسة سلاسل تقيد خيالك وتفسد عليك الدنيا .. لقد انبهرت بهذا الكتاب . ولكن لم أجد متعتى الحقيقية إلا بعد أن ذهبت إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجامعة ، وإلا بعد أن اشتريت نسخة نظيفة ، وإلا بعد أن تفرغت تماما لقراءته فى جلسة واحدة ، تحت شجرة فى حديقة الأسماك بالزمالك ..

وبعد ذلك قرأت الجزءين الآخرين لكتاب : قصة الفلسفة الحديثة . وبهذه الأجزاء الثلاثة ، اكتملت متعتى . وتمت فرحتى . ووقفت أنظر ورائى فى سخط . فقد أحسست أننى تحيرت كثيرا . وضللت طويلا . وتوهمت أنه كان من الممكن أن أكون واحدا من رجال الدين . أو كان من الممكن أن أكون مهندسا زراعيا ، لأن أبى كان زراعيا ولم يكن مهندسا . أو كان من الممكن أن أتجه إلى الطب لعلى أداوى أبى وأمى . ولعلى أكسب مثل الذى يكسبه الأطباء من زيارة المرضى ، دون أن يكون هناك شفاء لأحد .. ولا كان صحيحا أننى كنت أصلح أن أكون من رجال الشرطة . فقد اكتشف أحد أقاربى أن تصرفاتى تدل على ذلك . فأنا اعترض السيارات فى الطريق العام وأسجل أرقامها وأقول : شفروليه .. فورد .. كاديلاك .

وكنت فوق العاشرة بقليل . لأن « الديك الفصيح فى البيضة يصيح » . وقد رأى قريبى هذا أن كل شىء يفصح عن أننى سوف أكون من رجال المرور أو من رجال الأمن .. ولم يكن ذلك هو السبب الحقيقى . إنما السبب هو أننى لاأعرف ماالذى أفعله .. ولاأعرف كيف أبدو هاما . أو أبدو عارفا . أو كيف أقوم بمعادلة صعبة فى داخلى . فقد كنت أذهب إلى المدرسة على قدمى . وكانت المسافة طويلة .. ولذلك كنت أغالب هذا العجز المادى ، بنوع من التسامى المعنوى .. فأقف كأنى عسكرى مرور . وكأن هذه السيارات ليست إلا ماركات وأرقاما . وليست أكثر من ذلك . وكلها مرصودة عندى فى كتاب .. وكان رجال المرور فى بعض الأحيان يتركون لى هذه المهمة فأسجل فى دفاترهم أرقام السيارات .. ولا كان من الممكن أن أصبح شابا رياضيا ، فقد تفوقت فى كل الألعاب الرياضية فى المدرسة . فكنت كابتن المدرسة وكنت الأول فى الفصل .. أى « أول » المدرسة .. لم أكن أصلح ان أكون واحدًا من هؤلاء . . لماذا ؟

لأننى كنت أتجه فى كل ناحية بنفس الحماسة . ولم أعرف لى اتجاها واضحا . وإن كان من المؤكد أن علاقة ماسوف تربطنى بالكتابة . وقد قضت أمى على كل محاولة من أبى لكى أقوم بأى عمل نافع غير الدراسة . ولاأعرف ماالذى دفع والدتى وهى سيدة أمية ، إلى أن تصر على ذلك . فقد كانت ترى أن المثل الأعلى فى أسرتنا هو إبراهيم باشا عبد الهادى . ولابد لجميع أفراد الأسرة ، والناس أيضا ، أن يكونوا مثله . وكنت أسمع اسمه كثيرا . ولاأعرف ماالذى يجب على أن أفعله .. ولكنه إبراهيم عبد الهادى وأسرة عبد الهادى المليجى والزهيرى والباز وأبو سمرة والعقدة وعبد المحسن .. فلا كانت تعرف بالضبط ماالذى يجب أن أعمله ولا أنا .. ولكن من المؤكد لديها أن كل شىء سوف يتحقق عن طريق التعليم ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويوم جاءت أمى تبحث عنى وأنا طفل أحفظ القرآن فى كتاب القرية . وكان الكتاب لابن خالتها . فوجدت أنه قد كلفنى بإطعام الدجاج ، بينما الصغار جميعا يحفظون القرآن ويكتبون الواجبات فى كراساتهم ، يومها غضبت أمى وثارت ، وضربتنى أمام كل الأطفال : لأننى لم أخبرها بأن ابن خالتها يضيع وقتى ومستقبلى هكذا ..

ولم أكن أعرف أنه من الواجب أن أقول لها : إننى أكنس البيت وأغسل الأطباق وأذهب إلى الحقل وراء الحمير التى تنقل السباخ . ومنذ ذلك الوقت ، وأمى تهتم بصورة غامضة بمستقبلى دون بقية إخوتى . لماذا ؟ لاأعرف . ولاأعرف أيضا لماذا كانت تصر على أننى ابنها الوحيد .. وأنه لاأمل فى أحد من أولادها . . أنا فقط ؟!

لم يبق إلا كتاب واحد من مئات الكتب التى تمسحت بها عيناى فى ذلك الوقت . إنه بعنوان « مطالعات فى الأدب والتاريخ والاجتماع » للأستاذ عباس محمود العقاد ، ولايزال الكتاب عندى كما هو بأوراقه الممزقة وجلدته القديمة . وبخط والدى يرحمه الله . أما جلدة الكتاب فهى من كراسة رسم قديمة مكتوب عليها السنة المكتبية سنة ١٩٤١ – ١٩٤٢ . وهذا هو أول كتاب للأستاذ العقاد أقرؤه . وقرأته كثيرا وطويلا . فليس أدبا وفلسفة وتاريخا واجتماعا ، إنه دنيا جديدة . إنه دائرة معارف . إنه مجموعة من النوافذ انفتحت فى رأسى ليدخل منها هواء جديد . أوكسجين .. إننى كالذى هبط بمظلة واقية على كوكب آخر . وكان هذا الكتاب مثل كتب إرشاد السائحين إلى كل المعالم الأثرية والتاريخية . فمع الأستاذ العقاد لاتتعب ولاتضل . فهو يعرف كل شىء . وهو قادر على أن يعطيك « مفتاحا » صغيرا لأكبر القصور والمتاحف . ولم أجد بين كل الذين قرأت لهم رجلا يفوقه فى مقدرته على صناعة المفاتيح . وكلمة « مفتاح الشخصية » و « مفتاح الموقف » و « مفتاح الهداية » و « مفتاح الكون » من أحب الكلمات عند الأستاذ . وهو لايتهيب أحدا أو شيئا . إنه يقبل عليه . ويجلس إليه ويحاوره . وبسرعة يضع يده فى جيبه ويجد المفتاح الصغير الذى يشبه عبارة : افتح ياسمسم فى ألف ليلة وليلة . فلا تكاد هذه العبارة تقال حتى تنفتح الجبال .. وتنكشف الكنوز .

وفى كتب الأستاذ العقاد كلها تتناثر هذه المفاتيح ، دليلا على قدرته الهائلة على فك الطلاسم النفسية والعقلية . وقد لا تعجبك بعض المفاتيح ، ولكن من المؤكد أن الأستاذ قد تعب فى تكوينها وتشكيلها . ولكنه لايمن عليك إذا قدمها لك . ولايعرض عليك كيف تعب فى الاهتداء إلى المداخل الخفية للمذاهب الفلسفية والأدبية ..

مثلا .. الأستاذ العقاد عندما أراد أن يلخص كل حياة المرأة فى كل وقت وفى كل العصور قدم لنا هذا المفتاح : إن المرأة حيوان يتجمل ويتعرض وينتظر !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انتهى تكوين مفتاح شخصية المرأة . فهى حيوان كالرجل ، وهى تضع الأبيض والأحمر من وسائل الزينة والأزياء ، ثم تعرض كل ذلك على الرجال ، وتنتظر ماالذى سوف يفعلونه !

هل يمكن أن يوصف كتاب الأستاذ هذا بأنه مغامرات عقلية ؟ نعم . فالفكر كله مغامرة ، أى اقتحام لشىء جديد جرى وراء المجهول . ففيه الخطر والانتصار والاستطلاع والمتعة . والذى لايخاطر فإنه يمشى فى طريق قديم . والذى لايمشى فى طريق جديد ، فإنه يكرر غيره . وليس التكرار فى الفكر إلا موتا له .. ولذلك فهذا الكتاب للأستاذ كان أكبر مغامرة فكرية صادفتنى . ففى هذا الكتاب يتحدث عن أشياء غريبة تبدو متناقضة ولكنها ليست كذلك .. فهو يقول : إن الجمال هو الحرية . ولكنها حرية لها قيود . والدنيا هى الروح ولكن لكى تلمسها فلابد أن يكون ذلك عن طريق المادة . ويقول الأستاذ : إننى لست فى حاجة إلى أن يتكلم الناس عن عالم الروح أو الأرواح ، لأن فى الكون المادى روحانية كافية . والويل لهذه الدنيا كلها إذا لم يجد الناس فيها روحانية إلا عن طريق تحضير الأرواح ! !

والعالم كله – فى رأى العقاد – مادة وروح لاتنفصلان .. فلا هو روحى مطلق ، ولاهو مادى جامد ..

شىء عجيب . وفكر غريب . وخبطات على الرأس ، وفتح لطاقات القدر فى كل اتجاه ، وفيوض من النور ، وأسلحة حادة لامعة يستخدمها العقاد فى عملياته الفكرية : الجراحية والتشريحية والتجميلية ببراعة ورشاقة .

وكنت فى ذلك الوقت أكتب مذكراتى . أو ماأسميه مذكرات . فلا أعرف إلى من كنت أكتب ولا عن أى شىء .. إنما أجد الورق والقلم . وأكتب . وأتخيل أناسا حاورتهم وأناسا عاتبتهم . وأتوهم مشاكل نفسية وعقلية ، وأناقشها وأرد بها على نفسى . لم يكن ماأكتبه سوى محاورات أو تأملات أو انطباعات . وكنت جادا وحزينا ويائسا . وكنت مندهشا لأشياء كثيرة فى الحياة . وكنت أستخدم عبارات ضخمة مثل : ماأعجب الناس ! وماأتعس الناس وأشقانى بهم !

ولم أكن أعرف الكثير من الناس ولا الكثير من الدنيا . ولكن فى مثل هذه السن تكون العبارات ضخمة واللغة خطابية .. ويكون الشعور بالوحدة مقلوبا ، فبدلا من أن يشعر الإنسان أنه هو الذى انطوى وانزوى ، فإنه يخيل إليه أن الناس هم الذين دفعوه إلى ذلك .. فهو بالقوة قد انطوى وانعزل . مع أنه هو الذى اختار ذلك . أو وجد نفسه كذلك .

ولا أذكر أننى وجدت كلمة « حب » فى كل هذه المذكرات .. أو كلمة « فتاة » ، إنما وجدت كلمات ضخمة مثل : الله ، والقضاء والقدر .. والظلم .. والتاريخ .. ولو كان الأمر بيدى ؟!

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يكن كتاب الأستاذ هذا إلا الخطوة الأولى فى الطريق الذى طوله عشرون عاما انتهت يوم مات العقاد . ولكن مثل الأستاذ العقاد لايختفى يوم يموت . . فهو مثل الأنهار العظمى يظهر عشرين عاما ويختفى تحت الأرض عشرين أخرى ، ليفيض على سطح الأرض مئات السنين .

وكتب أخرى جعلت قلبى يقفز إلى ما فوق كتفى .. فأصبح قلبى يدق فى رأسى ! .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأبطال صناعتهم التاريخ !

كأنى مشدود بخيط من المطاط إلى الأستاذ العقاد ، إذا ابتعدت عنه أو باعدت نفسى ، فإننى أرتد إليه بقوة .. كأنه هو جزيرة المغناطيس التى جاءت فى ألف ليلة وليلة ، ونحن ندور حوله نقاوم أن تنسحب منا المسامير والقوائم الحديدية ، فلا تبقى منا إلا ألواح خشبية .. كأن الاستاذ العقاد هو خط جرينتش ، ونحن نقع شرقا منه أو غربا .. أو كأنه مستوى سطح البحر ، ونحن فوق ذلك أو دون ذلك .. كأنه الغطاء الذهبى لكل مالدينا من عملات ورقية .. وكلها من ورق ، وهو وحده الذهب والفضة والماس .. كأننا أكوام من الأشياء التى لاوزن معروفا لها .. وهو الكيلوجرام الحديد ، وجرام الذهب ، وقيراط الماس .. كأنه أبونا آدم ونحن أولاده وأحفاده .. فمهما اقتربنا منه أو ابتعدنا عنه فنحن آدميون ..

وأنا عندما أتحدث عنه ، وعنى ، فإننى أبدأ به .. بما قاله وأسحبه على كل حياتى ، أو أصف ماجرى لى وماجار على ، ثم أعود إليه أستعير مصباح علاء الدين ، وعصا موسى ، وبساط الريح ، وخاتم سليمان .. فلم يكن لنا منار سواه ، نهتدى به فى بحار الحياة الثقافية والتربوية والدينية والفلسفية ، وأحيانا السلوكية ، وإن كان هناك كثيرون سواه فإنه الأكبر . لماذا ؟ لاأدعى أن كل هذه المعانى كانت واضحة تماما فى رأسى . إنما كل ماكان عندى ، وأنا طالب فى المدرسة الثانوية ، هو إحساسى بعظمته .. فهل كان فعلا هو إحساسى بعظمته . أو هو احتياجى إلى العظمة أقف على مقربة منها .. أو هو احتياجى للأب والأم والمدرس والمرشد والصديق ؟

ربما كان ذلك هو المعنى .. فلم يكن بيتنا إلا جدرانا باردة من اللامبالاة .. أو باردة لأنها غرف ومقاعد من اللامبالاة .. وقد اكتشفت فى يوم من الأيام حقيقة حياتى كلها ولسنوات طويلة . وهى أننى أقيم فى كوخ ضيق بارد فى داخل بيتنا .. فأنا فى الطريق إلى البيت أتفادى الطريق العام . أهو الخجل ؟ أهو الشعور بأن ملابسي ليست كما يجب ؟ فقد حدث مرة أن اخترت حذاء أكبر إخوتى . أعجبنى . وضعته فى قدمى . نزعته فى الطريق عندما سخر منى زملائى . فقد كان كبيرا جدا . ولكنى لم أتنبه إلى أنه من الممكن أن يخرج من قدمى . وقد حدث ذلك مرة واحدة . ولكن هذه المرة لا أنساها ماحييت . وعندما رأيت غرفة نوم الأستاذ العقاد فى أيامه الأخيرة ، بهرنى هذا العدد الهائل من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأحذية .. وعندما خرجت أصابع الأستاذ من تحت الغطاء وجدت أنها أصغر كثيرًا من أحذيته ..

إذن لقد كان يرتدى أحذية كبيرة لتريح أصابعه . ولكن لا أظن أنها كانت تنخلع عند المشى .. وعندما رأيت بيت الأديب الأمريكى همنجواى فى مدينة هافانا بكوبا . وجدت عشرات من الأحذية أيضا . والغريب أن الرجلين وضعاها فى غرفة النوم . وليس أمام الغرفة .. ربما كان السبب أن هذه الأحذية لكثرتها واتساعها ، لاتخرج منها روائح العرق بسبب السير الطويل ، ولذلك فلا ضرر إذا تركت فى غرفة النوم ..

إذن فلابد أن أكون إنسانا شديد الحساسية ، إذ يكفى أن يقع لى حادث واحد فإننى لا أنساه . لم أنس سنوات طويلة ماحدث لى من سخرية زملائى عندما انخلع حذائى من قدمى . وقد تعيرت الأحذية وتلونت وطالت وقصرت . ولكن حادث الحذاء مازال خطرًا يهدد كل أحذيتى .. لقد ظللت أتوهم ذلك . ولم أجرؤ بعدها أن أمشى فى الشوارع العامة ، ومع زملائى من التلامذة .

إننى أنا الذى أفضل أن أكون وحيدا ، ولذلك اخترت الشوارع الضيقة . والحارات النائية . وعندما أعود إلى البيت . كانت غرفتى التى بها مكتبى ، إلى جوار الباب . فإذا انفتح الباب اتجهت إلى غرفتى . والمكتب فى منتصف الحجرة . لأن الجدران باردة . والرطوبة تصل من الأرض إلى السقف . كأن الجدران سد تقف وراءه المياه . أما الجير الذى يهبط من السقف فهو مثل قطع الجليد . وكان لابد أن ألف حصيرا حول مقعدى . لكى يعزلنى عن الجدران . وأن أضع رأسى فى طاقية سميكة . وكذلك قدماى . وأظل أنكمش وأقرب رأسى من المصباح الغازى الذى يضىء ويدفىء فى نفس الوقت .. إننى إذن أقيم فى كوخ فى داخل البيت . أما بقية البيت فنائم . وإن كنت أسمع أمى تسعل . وأبى أيضا . أما إخوتى فنائمون ..

وتغيرت البيوت واتسعت الجدران وارتفع الطابق الذى أسكن فيه . ولكن هذا الكوخ حملته معى فى كل مكان .. تغيرت الحصيرة وتحولت إلى جدران خشبية متينة ، ولكنى حملت عزلتى معى . وأحيانا أحس أننى مثل القواقع ، وأحيانا مثل القنفذ . وأحيانا مثل أهل الإسكيمو .. وربما تبقى من هذه العادة القديمة أننى ماأزال أضع على نفسى أغطية ثقيلة صيفا وشتاء . هل هو الشعور بالبرودة حتى فى الصيف ؟ لاأظن ذلك .. ولكنه نفس الشعور القديم : أننى أحمل كوخى .. أحمل خيمتى .. وأنصبها فى مهب الريح .. سواء كانت هذه الريح حقيقة أو وهما ، فهناك رياح دائماً ، أو يجب أن تكون . لكى أضع هذه الأغطية ..

وعندما ذهبت فيما بعد إلى بلاد اليابان ، وزرت جزيرة ميكوموتو ذلك الرجل الذى ابتكر اللؤلؤ الصناعى أو اللؤلؤ المزروع . ورأيتهم يخرجون اللؤلؤ من قاع المحيط ، قلت دون أن أدرى : يا أنا .. ! فحيوان اللؤلؤ يعيش وراء جدران القوقعة . وهذه القوقعة تتعلق فى ماء المحيط .. ويفتحها الحيوان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قليلا ليتغذى . فتدخل مع الغذاء ذرات من الرمل . فإذا دخلت التصقت بلحمه الناعم الرقيق فتوجعه .. ولذلك فإنه يفرز مادة بيضاء عازلة .. وهذه المادة يلفها حول ذرة الرمل ليعزلها عن جسمه .. ويظل يعزلها يوما بعد يوم وسنة بعد سنة حتى تتخذ هذه الذرة شكل اللؤلؤة .. فليست حبات اللؤلؤ إلا دموعا لحيوان عاش هادئا معلقا فى المحيط .. إنه فنان انطوى ، انزوى وبكى فنا .. فحبات اللؤلؤ دموع لامعة .

أما هذا الرجل اليابانى ميكوموتو فقد قام بتقصير فترات البكاء على هؤلاء الفنانين .. فأخرج القواقع من المحيط .. وبدلا من أن يضع ذرة رمل ، فإنه وضع حبة صغيرة من مادة المحار .. هذه الحبة فى حجم الحمصة الصغيرة . فإذا اقتربت من جسم الحيوان الرقيق ، راح يعزلها عن جسمه .. واستمرت عملية العزل الفنية الرائعة عاما أو نصف عام ..

ولكن مهما قصرت المدة فإنه يبكى !

ويوم رأيت ذلك فى اليابان كان سنة ١٩٥٩ ، ولم أكن فى ذلك الوقت قد أصدرت إلا خمسة من الكتب .. ولكنى كنت أعتصر نفسى ، وأنزف فكرا ، وأحترق أملا فى أن أكون شيئا قادرا على التعبير وعلى أن أستخرج بأظافرى أعمق أعماق ..

ويوم رأيت صورة الأستاذ لأول مرة كانت فى إحدى المجلات الفنية . ولم أكن قد رأيته قبل ذلك : الرأس كبير . الجبهة عالية .. الأنف كبرياء . والعينان سماويتان – أى تتجهان إلى السماء . أما الاكتشاف العظيم فهو أن الأستاذ كان يلف « كوفية » حول عنقه . ولما رأيت له صورا كثيرة وجدت هذه الكوفية صيفا وشتاء . إذن فلابد أنه هو الآخر يشكو برودة ما . ولابد أنه يتغطى كثيرا وكثيفا . ولابد أنه يسكن فى الطابق الأرضى أو الأول . ولابد أنه فى وحدة تامة من أجل أن يفكر . ومادام عظيما هكذا ، فهو مختلف تماما عن إخوته وأقاربه وعن أهل مدينته وعن كل الناس . وماعظمته هذه إلا كوخ من ورق أو من خشب .. ولكن مثل الأستاذ لايسكن كوخا إنما يسكن قصرا . فليست القصور للملوك إنما للفلاسفة والمفكرين العظام . و « الأبطال » ..

ولم أكن أعرف مامعنى كلمة الأبطال لولا أن دلنى الأستاذ على ذلك ، عندما كتب عن الفيلسوف الإنجليزى توماس كارليل . شىء عجيب ذلك الذى كتبه . فهو يرى أن التاريخ عربة . والعربة تجرها خيول . والخيول هم أبطال التاريخ .. أو أن التاريخ غابة . والغابة أشجار . ولكن شجرة واحدة ، لسبب ليس معروفا لدينا جميعا ، نجدها أطول وأعظم .

والتاريخ قطيع من الأغنام ، تجد واحدا منها يتقدمها دون سبب واضح . فإذا هاجمت الذئاب القطيع ، فإن هذا الذى يمشى فى المقدمة ، يواجه الذئاب ويموت دفاعا عن القطيع .. وتظل الشعوب نائمة ، حتى يوقظها بطل . وتظل الشعوب ضالة حتى يهديها بطل : فى السياسة وفى الدين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى الأدب وفى الفن .. والبطل هو القدوة وهو المثل الأعلى . وهو تجسيد لكل آمال وأحلام الشعوب .. إذن فالأستاذ العقاد هو البطل ..

وفى سذاجة الأطفال حاولت أن أبحث عن البطل بين المدرسين وبين زملائى من التلامذة . فكنت أجد مدرس الفلسفة بطلا . ففى وجهه ورأسه ومشيته مايؤكد لى أنه هو البطل . وفى إحدى المرات كتبت له هذه المعانى وقدمتها له . وقرأها أمامى . وضحك وأمسك أذنى . ومضى ولم يقل شيئا . فلاعرفت منه إن كان صحيحا ما كتبته . ولكن لابد أنه وجد فيما كتبت حسن ظن من واحد من تلامذته .. ولابد أنه قد اعتاد فى حياته الطويلة أن يجد مثل هؤلاء المعجبين الأبرياء .. إذن فلم يكن هو البطل ..

ورأيت فى مدرس اللغة الفرنسية مثل ملامح الأستاذ : الطول والرأس السامى ، والعينين الواسعتين ، والجبهة العريضة اللامعة ، والمشية السريعة ، وعطفه الشديد ، وتشجيعه المستمر .. ولكن لم أجد أكثر من ذلك .. إذن لقد جعلته بطلا فى خيالى ، مكافأة له على حسن تقديره لى ..

وفى حصة الرسم أطلت النظر إلى المدرس .. لقد كان يذهلنى ، فهو بسرعة يرسم الوجه والملامح ، كأن الوجه مطبوع على السبورة ، وهو يكشف عنه فقط – وعرفت فيما بعد أن هذا التعبير قد قاله ميكلونجلو عن نفسه .. وقاله الفيلسوف سقراط أيضا عندما أعلن : أن الطفل الصغير يعرف كل شىء . ويولد وفى عقله كل الحقائق ، والمدرس لايفعل أكثر من أن يذكره فقط بما هو موجود فى نفسه ..

ولم أكن أحسن الرسم . حاولت كثيرا . ولم أوفق . وفى إحدى الليالى كان من المفروض أن أرسم لوحة للعالم الإيطالى جالافانى . وأمسكت المسطرة والقلم ، وظللت أحسب ارتفاع الأنف عن الجبهة . ونسبة الشفتين إلى الأنف . والذقن والأذنين . وأمضيت ليلة كاملة أرسم هندسيا وجه هذا العالم الكبير . وأخفيت هذه اللوحة ضمن أوراقى . وفى حصة الرسم قدمتها للمدرس . ولكنه قلب الصورة . وأمسك القلم ورسم الوجه فى دقيقة واحدة . أوضح وأحسن ..

ووجدته ساحرا . ووضعته ضمن الأبطال المعدودين فى « مذكراتى » ..

وفى يوم كنت أجلس فى حديقة « شجرة الدر » . وكانت مظاهرة . وبين المتظاهرين زملاء المدرسة . ويتقدم المتظاهرين مدرس الرسم .. البطل .. والبوليس يمسكه من ذراعيه .. ولم أفهم كل الذى قيل لى فى ذلك اليوم . فواحد قال لى : إنهم ضبطوا فى بيته إحدى الطالبات .. وواحد قال لى : إنه كان يرسم فتاة عارية تماما .. لاأعرف ماذاحدث . ولكن الذى أحزننى على الرجل أنهم فضحوه .. ولم أعد بعد ذلك قادرا على أن أنظر إليه فى وجهه . فقد كنت أخشى أن يعرف أننى عرفت . مع أن المنصورة كلها قد عرفت ذلك . هل كنت أحس ذلك حقا .. أو أننى صدمت وخاب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أملى ؟ فأنا لم أعد أمام بطل إنما أمام أنقاض بطل .. أمام بقاياه .. ولم يسقط الرجل أمامى ، إنما سقط فى داخلى .. وأسقطنى معه .. فليست فضيحته إلا انهيارا لأحد الأوثان التى أقمتها فى معبدى ..

إنه فعل بنفسه مافعله تماماً فى لوحة العالم جالافانى ، فقد أمسك لوحته هو وبدلا من أن يرسم صورة أخرى فإنه قد مزقها .. ولكن بقيت الصورة فى عينى .. وظلت معلقة على جدرانى مقلوبة ، فالفضيحة بلغة المدرسين : صفر على عشرة .. وبلغة البوليس : سابقة .. وبلغة رجال الأخلاق : عار .. وبلغة أهل التربية : نموذج سيئ .. وبلغة الفلسفة : أن يكون الإنسان شيئا آخر أراده الناس ، وهو لذلك عاجز عن الدفاع عن نفسه . فقد أقام كل واحد منهم محكمة فى داخله ، وفى المحكمة قضاة وشهود . وحكموا عليه وأدانوه ، ورفعت الجلسة ، ولم يتمكن المتهم من أن يدافع عن نفسه ..

وكنت بهذه المعانى أقرب إلى التفسير الوجودى للأخلاق العامة . ولم أكن أدرى بذلك ! ..

ولم أذهب فى مفهوم البطل إلى أبعد من ذلك .. حتى وجدت كتاب « عبقرية محمد » للأستاذ العقاد . قرأته مرة واثنتين وثلاثاً . ولا أزال أحتفظ بهذه النسخة القديمة ..

وقد كتبت على الصفحة الأولى : عبقرية محمد من تأليف عبقرية العقاد . ثم هذه العبارة : إن عبقريا هو وحده القادر على أن يؤلف هذه العبقرية ..

ولم أشأ أن أقول لأحد إننى قرأت هذا الكتاب . فقد وجدت كتابا كأنه السحر . صدق رسول الله « إن من البيان لسحرا » . أما السحر فى هذا الكتاب فهو : أن الأستاذ قد أقام الدنيا كلها أمامه . وراح يقلب فى الشعوب فاختار شعب الجزيرة العربية . وراح يقلب فى القبائل فاختار قريشا . وراح يفتش فى بيوتها فاختار بيت عبد الله . وفى دراسة لعبد الله وزوجته آمنة وجد أن من الضرورى أن يكون لهما ولد . وأن يكون هذا الولد هو البطل . وأن يكون البطل فصيحا . وأن يكون الفصيح نبيا وأن يكون النبى محمدا . وأن يكون نبيا فى بيت عبد الله الذى هو من بيت قريش التى هى سيدة القبائل العربية ، وأن يولد نبيا فى مكة . وأن يعذبوه فيهاجر إلى المدينة ليعود إليها . ويكون أعظم الأنبياء وآخرهم ، وأن يختاره الفيلسوف كارليل أعظم الأبطال ! ..

وأن يختاره بعد ذلك سنة ١٩٧٩ كاتب أمريكى فى كتاب عنوانه « الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله » . وقد نشرت هذا الكتاب بقلمى ..

ولا أنسى عبارة قالها الأستاذ فى الصفحات الأولى من « عبقرية محمد » . وهو يبرهن على أن النبى محمدا عليه السلام « ضرورة كونية » ، فيقول : « إن حوادث الكون أكدت أن الدنيا فى حاجة إلى رسالة .. وأكدت حقائق التاريخ أن محمدًا هو الذى يجب أن يكون صاحب الرسالة .. » ويقول الأستاذ أيضا : « العالم كله فى انتظار رسالة .. وأحوال محمد ترشحه لهذه الرسالة .. وكان من الممكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن تتفق أحوال العالم وكذلك أحوال محمد ، ولاتتفق الوسائل التى تجعله يؤدى رسالته على أحسن وجه ، فكان من الممكن أن ينتظر العالم كله هذا الرسول ، ثم لايظهر الرسول .. وكان من الممكن أن يظهر الرسول فى البيت الصالح وفى البيئة الصالحة ، ثم لاتتوافر له الصفات التى تجعله قادرا على أداء الرسالة .. ولكن المعجزة هى أن محمدا استكمل الصفات الضرورية لنجاح أية رسالة عظيمة فى التاريخ . فكانت له الفصاحة واللغة .. وكانت له القدرة على تأليف القلوب والثقة به » ..

والشىء الباهر فى هذا الكتاب أنه يضع الدنيا كلها فى سلسلة واحدة .. أو أن الأستاذ قد أتى بالتاريخ من أوله لآخره ، ورسم له على الأرض طريقا محددا . وأنه وضع علامات للوقوف . وعلامات للسير . وأن التاريخ يمشى على هواه هو .. يمشى بقدميه ويرى بعينيه ويكتب بقلمه .. كيف ذلك ؟ لا أعرف ..

وفى هذا الكتاب يدافع عن الإسلام ، ويرد النقد العنيف الذى وجهه المستشرقون والملحدون .. وأخطر من ذلك أن الأستاذ يرى أنه لامستقبل للبشرية كلها إن لم يكن لها دين . والدين هو المستقبل . ولامستقبل بغير إيمان . ويجب أن يكون للإيمان مستقبل . وأن هذا هو طوق النجاة للحائرين فى كل العصور ..

ولا أدعى أننى فهمت كثيرا مما قاله الأستاذ فى هذا الكتاب . إنما كنت مبهورا بهذا القصر الرائع الذى أقامه . أراه من بعيد شاهقا . وأراه من قريب معجزة . وصعدت درجاته ودخلت غرفه ووجدت أشياء وأشخاصا ، لم أتبينهم بوضوح . ووجدت أسلحة ووجدت صراخا عاليا ومعارك ودماء وتهليلات وتكبيرات . ولم أدرك تماما ماهذا الذى حدثنا عنه الأستاذ ، ولكنى مأخوذ بالمقدرة والبراعة والسهولة ، وهذه الموهبة الخارقة على الإقناع ..

ولم أفهم فى ذلك الوقت معنى كلمة الشيوعية . ولكنها ترددت على مسامعى مع مط الشفاه ، بما يدل على أنها شىء ردىء ، أو أنها فكر ضار . وقرأت مقالا للأستاذ سيد قطب فى مجلة « الرسالة » يهاجم الشيوعيين . ويقول مامعناه أن الأستاذ العقاد قد أصدر العبقريات – محمد والصديق وعمر دفاعا عن الإنسانية . فالشيوعية لاتؤمن بالبطل . ولاترى للبطل أية ميزة خارقة . إنما ترى أن البطل هو مندوب المجتمع ، وهو من صناعة الجماهير . وهى التى رفعته على كتفيها ليهتف بأفكارها . وكما أن المجتمع قد أفرز واحدا ، فهو قادر على أن يفرز الكثيرين . وأن الشيوعية قد شوهت عظماء التاريخ جميعا .. وأن من الواجب الأخلاق على عظماء المفكرين أن يردوا اعتبار العظمة والعظماء .. والأستاذ عباس العقاد يفعل ذلك . فهو عظيم يدافع عن أبناء جنسه من العظماء ..

وقرأت فى ذلك الوقت أن الأستاذ أحمد أمين قد عاب على الأستاذ أنه لايذكر إلا الصفات الطيبة للعظماء والعباقرة . ولما كان العظماء بشرا مثلنا فلابد أن لهم عيوبا . لايصح إغفالها . حتى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لايصور للناس أن العظماء ملائكة ، وأنهم فوق البشر. وأنه لاأمل عند أحد أن يكون عظيمًا ..

ولكنى لم أقتنع بما قاله الأستاذ أحمد أمين فى ذلك الوقت . ورأيت مايراه الأستاذ . فهم عظماء ولاعيب فيهم . وإلا لما استحقوا أن يكونوا أبطالاً .

وأحسست من هذا الكتاب أننى جعلت لكوخى بابا متينا . هذا الباب هو كتب الأستاذ العقاد . وأحيانا كنت أشعر أنه ليس بابا . إنما هو درع .. وأحيانا ليس درعا ، إنما هو عينان وأذنان وشفتان وعقل .. لقد أصبح الأستاذ أطرافى الصناعية : نظارتى وسماعتى ومفتاح بابى وسلاحى السرى ..

هل تعلمت أن أقول : نحن .. قرأنا وكتبنا .. وفكرنا . . من كثرة قراءتى للأستاذ ؟ نعم . وقد نبهنى مدرس اللغة العربية إلى أن أحذف كلمة « نحن » وأن أقول كلمة : أنا .. فلاحق لى إلا أن أتحدث عن نفسى . ووجدت ذلك معقولاً ..

ولكنى عندما أتحدث عن أيامى فى صالون العقاد ، فلم يكن الصالون حديثًا بينه وبينى . إنما كان حديثا مع كثيرين . وكنت واحدًا منهم . وكثيرا ماكانت الأسئلة خاصة ، أما الإجابة فهى عامة عادة . وبعض هذه التساؤلات لم تكن لى وحدى .. ولا كانت الإجابة موجهة لى . وكان من الممكن أن أذكر عددا من أسماء الذين ترددوا على صالون الأستاذ ، لولا أن بعضهم لم ير فى ذلك شيئا كبيرا . أو رآه كذلك ، ولكن لا أثر له فى حياته الفكرية . فبعض الرواد كانوا أطباء ومحامين وقضاة .. وأقلهم من المشتغلين بالفلسفة والأدب ، مثل : وليم الميرى ، وعبد الفتاح الديدى ، وجلال العشرى ، وعامر العقاد ابن أخيه ..

وبعضهم كان يرى أن الأستاذ الحقيقى لهذا الجيل هو الأستاذ أمين الخولى ، أستاذ البلاغة . وأقرب الناس إلى الفيلسوف سقراط : لم يكتب حرفًا واحدًا ، ولكنه هز العقول لتكتب . فليست مؤلفات الأستاذ الخولى كثيرة . ولكن أثره كان عميقًا على تلاميذه : زوجته بنت الشاطئ .. وآخرين من الأدباء والشعراء ..

ولكننا – آخرين وأنا – كنا نرى أن الأستاذ هو العقاد .. لا أنسى له حكاية قالها .. هذه الحكاية عندما فكرت فيها وجدتها تفسيرا صحيحا لسلوكى ، عندما كنت تلميذا صغيرا قررت الانتحار . ولاأعرف من أين جاءتنى هذه الفكرة . لم أسمع عن أحد ، ولم أر أحدا قبل ذلك قد انتحر .. ولاكنت عرفت أن الأستاذ قد فكر فى الانتحار . وكاد ينفذ ذلك ..

ولاكنت عرفت أن الأستاذ قد اضطرته قسوة الحياة إلى أن يبيع كتبه . وقد بعتها . وحملتها فوق ذراعى كما تحمل أم طفلها . وتلقى به ملفوفا فى ملابسه ، بعد أن أرضعته ، أمام بيت من البيوت .. إنه ثمرة خطيئة . ورمز عار . ولكنه ابنها . لحمها ودمها تسعة شهور .. وحملت كتبى كأننى أم موسى عليه السلام . خافت عليه من فرعون . وكان فرعون هو الفقر . وخافت أن تلقى به فى البحر فيموت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فوضعته فى سلة . وطلبت إلى أخته أن تراه من بعد . حتى إذا التقطته ابنة فرعون . تقدمت أخته تدلهم على من يرضعه . « فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولاتحزن » – صدق الله العظيم .

وحملت كتبى ملفوفة فى فوطة نظيفة . وذهبت إلى بائع اللب ، كتبى مجلدة فى ورق شفاف . عليها اسمى ، واتخذ كل واحد منها رقما . وصففتها واحدا واحدا . ونفضت عنها التراب . ولم ألمسها بقلم . وأعطيتها للبائع واحدا واحدا . ولكنه مد يده وخطفها ووضعها على الميزان . وبسرعة أعطانى قروشا .. فلا رأى أصابعى ولارأى لهفى ولارأى دموعى .. ولارأى جنازتها التى مشيت فيها صامتا إلى البيت . وعندما عدت إلى البيت احتوتنى اللامبالاة ثم الحزن .. والحزن كالسحب يسقط منه المطر على خدى .. ولففت نفسى فى حصير وانكفأت على مكتبى أبكى .. وأغلقت باب حجرتى لأستأنف البكاء حتى لايسألنى أحد . ولم يسألنى أحد .. وعرفت أن مذكراتى التى سجلت فيها هذا الحدث الأليم هى أسئلة أتوهم أنها من أحد . ثم أرد عليها . فقد كانت مذكراتى حوارا مفتعلا ، ونوعا من المبالاة الزائفة ، أقاوم بها لامبالاة حقيقية .

أما الحكاية التى قال لى الأستاذ – لى أنا وليس لأحد من تلامذته : إن الفيلسوف الألمانى شوبنهور كان لايحب أمه . وكانت هى أيضا لاتحبه . كانت تحقد عليه . وكانت هى صاحبة صالون أدبى . وكان يتردد على صالونها أعلام الفلسفة والأدب فى عصرها . وفى يوم بعث ابنها بواحد من كتبه إلى أمير الشعراء جيته .. وانتظر رأيه . ولكن الشاعر الكبير لم يشأ أن يفعل . فذهب الفيلسوف الشاب إلى صالون والدته . ودون إذن سأل الشاعر عن رأيه فى الكتاب . فضاقت أمه بهذا السلوك غير المهذب فطردته من الصالون . وسارت وراءه حتى أسقطته من السلم . فقال لها صارخا : مهما فعلت . فسوف تعيشين وتموتين على أنك أم الفيلسوف شوبنهور ! ..

وصدق فى ذلك ..

ولكن الفيلسوف الصغير ظل منتظرا تحت الجليد حتى نزل أمير الشعراء . وسأله . فقال له جيته هذه الحكمة العظيمة : إذا أردت أن تجعل لحياتك معنى ، فاجعل للحياة معنى ! . .

وكان الفيلسوف متشائما . وكان يرى أن الإنسان بلا إرادة . وأن غريزة البقاء هى التى تدفعه إلى الحياة . وأن غريزة البقاء هى التى تزيف له كل المشاعر : الحب والغيرة والزواج . فالحب هو تعبير مهذب عن رغبة جنسية ، والغيرة هى خوف على الحياة أن يهددها شىء فلا تستمر بين رجل وامرأة .. وأن الزواج ليس إلا علاقة جنسية عادية ، ولكن المجتمع قام بتزييف دوافعها ! ..

والفيلسوف شوبنهور لم يجد لحياته هو معنى ، ففقدت الدنيا كلها أى معنى .. فكانت حياته انتحاراً بطيئاً !

ووجدت فى هذه الحكاية تفسيرا لما أصابنى قبل ذلك .. فلسبب ليس واضحا عندى تماما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجدتنى مقبلا على الانتحار . لماذا ؟ فى ذلك الوقت كنت الطالب الأول فى المدرسة : فى الابتدائية والثقافة والثانوية العامة وفى جميع السنوات . هل أدى ذلك إلى عزلتى عن بقية التلاميذ ؟ ربما .

هل أدت هذه العزلة إلى أن أحاول أن أختار عددا من الأصدقاء فنكون « جمعية » فى مواجهة الآخرين ؟ ربما .

هل كانت « جمعية الكتب المقدسة » التى أنشأناها تفسيرا لذلك ؟ ربما . فقد كنا ثلاثة : يهوديا ومسيحيا وأنا المسلم . هل كانت لهذه الجماعة أهداف تدعو لها ؟ هل فكرنا فى شىء ؟ لا أظن . إنما ألفنا جمعية لنا نحن الثلاثة ، لنكون معا فى كل وقت . وأن نكون فى مواجهة الآخرين . وأن تكون عزلتنا قوية . فبدلا من أن نشعر أن الناس نبذونا ، نتوهم أننا نحن الذين نبذنا الناس . وأننا نحن الأفضل ..

هل خطر لنا أن هذه الجمعية رمز للتسامح الدينى ؟ لا أظن ذلك . فلم يكن أحد منا يعرف دينه أو دين الآخرين بوضوح . ولا كانت الفوارق بين الأديان معروفة لدينا . إنما نحن ثلاثة .. واحد فى مدرسة الفرير .. والثانى فى مدرسة الرشاد الثانوية .. وأنا فى مدرسة المنصورة الثانوية .. ولم يخطر على بال أحد منا أن هناك فارقا بين يهودى ومسيحى ومسلم .. ربما الأسماء فقط هى التى توهم هذا الخلاف .. وليست الأسماء دائما . فهناك محل لبيع الورنيش يملكه شخص اسمه : سعد يوسف ، وهو يهودى .. وهناك ترزى اسمه : يوسف يوسف ، وهو مسيحى .. وهناك مدرس للرسم اسمه : يوسف سعد ، وهو مسلم ..

ولا أذكر أننا كنا نتكلم عن أحوالنا الشخصية أو العائلية .. وإن كنت ألاحظ أن حذاء الصديق سعد اليهودى نظيف دائما لامع دائما . أما حذاء الصديق يوسف المسيحى فهو ليس كذلك .. وأحيانا كانت جوارب الصديق سعد نظيفة وجديدة ، كما أنه كان يخرج مناديل بيضاء جدا من جيبه ويمسح بها فمه أو جبهته .. أما الصديق يوسف فكانت ملابسه نظيفة ولكنها ليست أنيقة . وكان لايستخدم المنديل كثيرا .. وإن كان يخرج المشط من جيبه ليسوى شعره الأسود الناعم الطويل . وإذا مشينا كان هو أكثر اهتماما بالفتيات .. وكن يضحكن له .. أما الصديق اليهودى فكان يشبه تمثالا إغريقيا رأيته فى كتاب للأستاذ دريني خشبة عن « أساطير الحب والجمال » ، وهو من الكتب التى هزت خيالى كله .. لاأعرف صاحب التمثال . ولكن لابد أن هناك تشابها ، فهو يهودى يونانى .. وكان لايعبأ بما يحدث فى الشارع . وكنت مثله أيضا . هل كنا أصدقاء ؟ لاأعرف . إنما كنا نتجاور فى السير .. نمشى معا . وكانت المسافة بين ظروفنا ونفوسنا أبعد بكثير جدا مما نتصور .. أو كان هذا شعورى .. لقد أذهلنى أن وجدت أحدهما يخرج من جيبه رزمة من الفلوس . ولم يقل إن أحدا قد أودعها معه . أو حتى يفسر لنا ذلك . كأن وجودها معه شىء طبيعى . وعندما سافر إلى الاسكندرية بضع مرات ، لم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يشأ أن يذكر لنا أسباب سفره .. ولا عندما زارته أخته القادمة من لندن .. كيف هى ولا كيف كانت ولا لماذا ذهبت ..

حتى فى هذه الجمعية لم نكن معا ، إنما كنا متجاورين فى المكان .. نمشى معا ونسكن فى شارع اسمه شارع كوهين .. وفى مرحلة واحدة هى الثانوية .. وكنا متجاورين فى الزمان .. فقد ولدنا بالصدفة فى يوم ١٨ أغسطس من سنة واحدة فى مدينة واحدة .. ولكن إذا افترقنا كل يوم ، فليعود كل واحد منا إلى دنياه ..

ولما مرض صديقى سعد ذهبت إلى بيته . وسألت . وفتحت الباب والدته . وأدخلونى غرفته كانت دافئة . نظرت إلى الجدران فلم أجد أثرا للرطوبة مع أنه كان فى الطابق الأرضى . ووجدت سريره ملاصقا للحائط . ووجدت المصباح الكهربى فى السقف . ورأيت لأول مرة فى حياتى مصباحا كهربيا على المكتب .. وجاءت أمه وأخته وأخوه . وجلسوا . هل كانت أمه بيضاء سوداء العينين ؟ هل كانت أخته كذلك ؟ هل سمعت كلمة « حب » ذهابا وإيابا بينه وبين والدته .. أى أنه يحبنى . ويرانى أعز الأصدقاء ؟ هل قالت أمه : إن الذى يحب ابنى ، يحبنى أيضا . أو أن الذى يحبنى هو الذى يحب ابنى ؟ هل سألتنى : ولماذا لاأقيم معه بعض الوقت .. فغرفته كبيرة .. والبيت به ثلاث غرف نوم ، وهم سوف يسافرون إلى القدس ؟ هل قلت شيئا ؟ هل وافقت ؟ . هل أسعدنى هذا العرض دون أن أوافق عليه ؟ هل هذه هى أول أسرة أجدنى مدفوعا إلى التردد عليها ؟ فقد كان من عادتنا أن نلتقى عند المكتبة الفاروقية فى شارع النيل .. فوجدت أننى أذهب قبل الموعد المحدد لكى أجد نفسى فى بيته مع أمه وأخته وأخيه .. ووالده أحيانا . ربما ..

أما صديقى يوسف فكان هو الذى دعانى إلى بيته لتناول الغداء . وكانت المناسبة عيد ميلاده . أول مرة أشاهد فيها مثل هذا الاحتفال . وكان الحاضرون كثيرين . وقدمني لهم على أنني الأول في شهادة الثقافة العامة. ورأيت شمعة مشتعلة . ثم أطفأوها جميعا . وأكلوا وشربوا . وانصرفت . . وقبل أن أنزل قالت لى والدته : تعال مرة أخرى ياحبيبى . . إن يوسف يحبك جدًا .

ودعانى صديقى يوسف فى عيد ميلاد والدته .. ووجدتنى أعود مرة أخرى .. وأجلستنى إلى جوارها .. وأطفئت الشموع . وأكلنا وشربنا .. وعند الباب استحلفتنى أن أجىء إليها .. ويسعدها أكثر لو جئت مع والدتى لكى تعرفها .. لأن يوسف يمتدحها كثيرا ..

وفكرنا فى أن نذهب إلى القاهرة يوما ونعود فى اليوم التالى . ولم أكن قد رأيت القاهرة ، ولم تكن هذه فكرتى . أما السبب فهو أن نزور الأزهر الشريف ونرى الأهرام . ووافقت ولكن لاأعرف كيف . وانحلت مشكلتى بأن صديقا لواحد منهما سوف يسافر بسيارته إلى القاهرة ويعود فى اليوم التالى .. وأسعدنى ذلك ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن عندما عدت إلى البيت وجدت أمى مريضة أكثر : ممددة على الفراش شاحبة تسعل دما . ونظراتها هى العجز عن النظرات . وليس من الضرورى أن تقول شيئا . فكل شىء واضح لمن يريد أن يعرف . وليس أبعد من كل شىء فى دنيانا : الطبيب بعيد .. والدفء بعيد .. والأب بعيد .. والشارع بعيد .. ومفتاح الفرج بعيد .. والصحة أبعد .. والسماء أبعد من كل شىء .. بل ليست لنا سماء ..

أشارت إلىَّ أن أجلس : فجلست . أشارت أن أقترب منها لتهمس فى أذنى .

وخرجت أبحث عن طبيب من أقاربنا . وفى الطريق إليه وجدت ابنته . . هى الأخرى تلميذة . ولكنها ليست مثلى فى أشياء كثيرة . وبسرعة نادت والدها . واتجهنا إلى البيت . وسألنى فى الطريق : ماتزال كما هى ؟ قلت : نعم ، وقال : ومايزال والدك مسافرا ؟ قلت : نعم .. قال : ألا توجد وسيلة لتغيير هذا السكن وأن تكون لكم خادمة ؟ ولم أجد ما أقوله . ثم سألنى : وأنت يا ابنى لماذا لاتبحث لك عن عمل مادامت الظروف لاتسمح ؟ تعال واشتغل عندنا فى العيادة ..

ولا أظن أننى رددت . وفى البيت أعاد هذا الذى قاله فى الطريق . ولكن ابنته التى لم أشعر بأنها جاءت معه اعترضت على ذلك ، وقالت : إنه أحسن تلميذ فى المدرسة . وسوف يكون له مستقبل ..

وقال أبوها ، ولم أفهم معنى ذلك : أنت وضعت عينك عليه ! ..

ولم أشاركهما فى الضحك . ولكن عينى على يد الطبيب تقلب فى المريضة التى عجزت حتى عن كلمة الشكر .. وجلست إلى جوارها .. وأشارت أمى إلى أن أرافق الطبيب حتى الباب الخارجى . وعدت إليها لأقول إنه خرج . فأشارت أن أذهب إليه وأشكره .. وظللت أجرى يمينا وشمالا حتى وجدت الطبيب . وشكرته . وقالت ابنته : ألا ترى يابابا كيف إنه إنسان حساس ؟! ..

أما بيتنا فصاحبه مدرس اللغة الانجليزية فى المدرسة . وأحمد الله أننى لم أكن من تلامذته . فأنا أتفادى أن أراه ، فنحن لاندفع الإيجار بانتظام . ثم إنه يضرب زوجته . وقيل إنها فلسطينية . ثم عرفت من صديق سعد أنها يهودية . طويلة عريضة بيضاء طويلة الشعر سوداء العينين . وابنها كذلك . وهى لم تنجب أولادا من زوجها صاحب البيت . وكانت لها طريقة فى الكلام أجنبية . وهى عالية الصوت دائما . حتى عندما كان يضربها بالعصا ، كانت تصرخ . وكان السكان يقفلون الراديو ليسمعوا ماذا يقول الرجل وزوجته . وماهو السبب . وكنت لاأحب الرجل لهذه القسوة . ولاأحب خجلى منه وعجزنا عن سداد الإيجار ..

وفى إحدى المرات ذهبت أدفع الإيجار ، بعد أن تأكدت من أن صاحب البيت قد خرج . فوجدت زوجته . وأعطيتها المبلغ .. ثمانين قرشا . دون أن أنطق بكلمة . ولكنها أصرت على أن أشترى به أدوية لأمى . وقالت إنها سوف تزورها بعد لحظات ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى نفس اليوم الذى لاأنساه لحظة لحظة ، ذهبت إلى الأجزاخانة ، ولم أكد اقترب منها حتى وجدت صاحب البيت . فأعطيته مامعى من فلوس . فنظر إليها بسرعة ووضعها فى جيبه . أما الذى حدث بعد ذلك فلا أعرفه تماما .. كم مضى من الوقت ؟ .. ساعة ساعتين وأنا جالس على الأرض أمام الأجزاخانة . هل نمت ؟ كيف جاء أبى فى هذه اللحظة ليشترى الدواء وأعود معه إلى البيت ؟ إنها الصدفة السعيدة . .

لم يسألنى إن كنت قد نجحت وجاء ترتيبى الأول ، ولكنى أنا الذى قلت له . فوضع يده على رأسى ودعا لى بالنجاح .. ولم يسألنى إن كنت قد سددت الإيجار .. ولم أجرؤ أن أسأله كم يوما سوف يبقى معنا هذه المرة قبل أن يعود إلى عمله ؟ .. ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت أين يعمل . لقد غيّر مكان عمله كثيرا .. إنه أكثر إشراقا وأصح جسدا . وأكثر امتلاء من أمى .. إنه يكبرها بثلاثين عاما . ولكنها تبدو كما لو كانت والدته .. لماذا لايأخذها معه ويتركنا وحدنا ؟ لقد جربنا هذه الحياة بضع سنوات قبل ذلك .. وكنا نسكن وحدنا أنا وإخوتى ، ثم نعود إلى أبى وأمى مرة كل أسبوع .. فى ذلك الوقت انسدت منافذ الحس عندى كلها . لم أعد أرى . لم أعد أسمع . ولم أعد قادرا على فهم شىء . فى ذلك الوقت أحسست أننى « مأخوذ » . هناك قوة خفية أخذتنى . غيبتنى . فأنا الحاضر الغائب . أنا الشبح الذى يروح ويجىء . ولم أجد ما أقوله عندما سألنى صديقاى سعد ويوسف : أما تزال والدتك مريضة ؟ لماذا لاتأخذها وتسافر بها إلى أسوان ؟! ..

وأيقنت أكثر أن المسافة بينى وبين هذين الصديقين أبعد مما تصورت .. والمسافات كلها بعيدة .. والدنيا كلها أصبحت صغيرة .. وهى لذلك حقيرة .. ولامعنى لشىء .. ولاحكمة لهذا الذى أراه ولا أفهمه .. وهذا الذى أفهمه ولا أرضاه .. ولاحتى هذا الذى أرضاه ، فإننى لم أختره .. بل ليس هناك اختيار لأى شىء .. من الذى اختار أباه وأمه .. وظروفه ؟ من الذى اختار الصمت الرطيب .. والرطوبة الصامتة ؟ ومن الذى اختار « الآهة » لحنا مميزا لحياتنا ؟ من الذى اختار لون الدم نزيفا ، والضعف زائرا ، وصاحب البيت مدرسا ، وسداد الإيجار عارا شهريا ؟ .. ومن الذى اختار أن أكون أكثر الإخوة اجتهادا ، أو أول الطلبة فى المنصورة وفى مصر ؟ ومن الذى اختار أن تكون نهاية العام الدراسى هى نهاية القراءة والكتابة ؟ فعند نهاية كل عام يجىء من يطلب إلى أن أبحث لى عن عمل .. ولابد أنه ينظر إلى أشياء كثيرة فى بيتنا ليجد أن هذا هو الحل .. أى الحل هو ألا أكون كما أريد ... أو أتمنى أن أكون .. وإن لم يكن واضحا عندى فى ذلك الوقت ، ماذا تعنى إرادة شىء .. فالإرادة كلمة غريبة .. فلم أرد شيئا . ولااخترت شيئا . إنما كل شىء موجود على أسوأ صورة . وهو كالجدران جامد فى مكانه . هل نحن سجناء ؟ نعم . فى سجن فى داخل سجن فى داخل لغز لاأعرف له حلا .. وإن كان الجميع يطالبوننى بالحل لكى نخرج جميعا من هذه السجون .. أنا من الرطوبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأمى من المرض .. أو لكى أخرج أنا من سجن الشك .. أو لم يكن ذلك شكا فهو سجن الشعور بأنه لامعنى لشىء .. ولا هدف وراء شىء .. ولاحكمة فى أن يكون أحد فى الدور الأرضى مريضا ، ويكون أحد فى الدور الأعلى يصرخ من الضرب بالعصا ..

فى ذلك اليوم الذى لا أنساه ذهبت إلى أمى ورحت أقبل يديها ، وأدعو لها بالشفاء .. ورحت أغسل الأكواب وأضعها إلى جوارها .. وذهبت إلى إحدى خالاتى وطلبت إليها أن تذهب إلى أمى .. وتقول لها : إننى ذهبت أبحث عن عمل . وإذا تغيبت أسبوعا أو شهرا فلا تحزن ..

واندهشت خالتى . ولكنها لم تستبعد أن يكون ذلك صحيحا . وعانقتنى وتمنت لى التوفيق . وكتبت خطابا إلى والدتى أقول لها: إننى عبء على الجميع ، وكما كانت حياتنا على هذه الأرض مصادفة .. فأنا بالصدفة ولدك وأنت بالصدفة والدتى. وكان من الممكن ألا نكون معًا ! ..

وأعتقد أننى استوحيت هذه العبارة من بحث قرأته فى مجلة « الرسالة » عن الفيلسوف الإنجليزى هيوم ..

وبسرعة اتجهت إلى الصديقين سعد ويوسف . وقلت لهما : سوف أسافر إلى الإسكندرية وحدى . ورجوتهما أن يزورا أمى كل يوم ..

وحملت ماتبقى لدى من كتب وذهبت إلى بائع آخر . وعندما أحسست بيده فى يدى عدت إلى البيت . وفى الطريق إلى البيت مررت بالفرن واشتريت خبزا وجبنا وبعض أقراص الاسبرين . وتركتها على إحدى المناضد . وكانت أمى نائمة . وخرجت . واتجهت إلى كوبرى المنصورة لكى ألقى بنفسى فى النيل ..

لا أعرف كم من الوقت مضى حتى بلغت الكوبرى . ولا كم من الوقت مضى حتى انتظرت أن يخلو الكوبرى من المارة . حتى لا يرانى أحد فأشعر أمامه بالخجل أو حتى يعرفنى فينقذنى .. هل كان الكوبرى خاليا حقا ؟ ولكن صوتا مألوفا ويدا امتدت إلى ذراعى ، ووجها بدأت أعرف ملامحه بوضوح .. كأننى أصحو درجة درجة ، أو كأن الوجه يقترب خطوة خطوة : ماذا تعمل هنا ياحبيبى .. وكيف حالها الآن ؟ ..

إنها السيدة التى تعطى لوالدتى الحقن . وكانت فى الطريق إليها . وكذبت عليها كثيرا فى عدد الزوار والأدوية وفى تحسن صحتها .. وأننى كنت فى الطريق إلى طبيب آخر .. ووجدتنى فى البيت أمام والدتى التى تدعو لى لأننى أحضرت كل هذه الكمية من الخبز والجبن والأسبرين ..

وأمامها أدركت جريمتى : إننى قررت أن ألقى همومى فى النيل ، ونفسى معها .. وكل خطيئة هذه السيدة والدتى أن لها ابنا لاتفهمه .. وليس من الضرورى أن تفهمه ، فهى لم تتعلم كما تعلمت .. ولادار رأسها وراح مع المذاهب والأسماء والمشاكل .. صحيح أننى ابنها ، ولكنها ليست أمى الفلسفية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو الأدبية أو النفسية .. إننى لاألومها ، ولا هى قادرة على لومى .. وإذا كانت هى « العجز » نفسه ، فإننى « الشك » نفسه .. ولا أنا ضرورى لها ولاهى .. ولانحن جميعا .. ولاحكمة عندها ولاحكمة عندى .. ولاعند أحد .. ولما عدت إلى الحياة .. كأننى عدت إلى محطة قطار : الناس كثيرون .. والوجوه مختلفة والاتجاهات متباينة .. ولا أحد ينظر لأحد أو ينتظر أحدا .. والقطارات لها دوى وصفير .. ولو سقط أحد أو توقف قطار فلن يحدث فى الدنيا مايعطلها عن الدوران .

ولما جلست إلى جوار أمى قالت : الحمد لله أنك لم تكن هنا منذ ساعة ..

لماذا ؟ لقد جاء أحد أقاربها واقترح عليها أن يجد لى عملا . فطردته من البيت . لأنها تريد أن أكمل تعليمى ولو أدى ذلك إلى أن تتسول رغيفى وملحى ! ..

أى فى نفس اللحظة التى اتخذت فيها قرارا ، كانت هى أيضا قد اتخذت قرارا ..

ثم كانت هذه السيدة التى تعطيها الحقن قد تحركت من بيتها لتعيدنى إلى البيت ..

وأنقذتنى أمى من الموت .. وأنقذنى الأستاذ العقاد من التفكير فى الموت مرة أخرى . فقد هدانى إلى أعمق أعماق . . رغم أنه هو قد فكر فى الموت . ففى ذلك اليوم صدر عدد جديد من مجلة « الرسالة » يقول فيه الأستاذ فى حديث له مع عباس عبد البهاء ، زعيم الطائفة البهائية : إنه حيث يكون الماء يكون الشجر .. ولكن الأستاذ قال له : بل حيث يكون الشجر يجب أن يكون الماء ..

والفرق بين الرأيين : أن عباس عبد البهاء ، يرى أنه مادام هناك ماء ، فمن الطبيعى أن تكون حياة : أشجار وحيوان وإنسان ..

ولكن الأستاذ يرى أنه مادام الله قد قدر أن يكون إنسان وحيوان وشجر، فلابد أن يأتى لها بالماء .. فالحياة إرادة كونية ، والماء ضرورة حيوية ..

وقال الأستاذ : وحيث تكون موهبة ، فلابد أن تكون لها حكمة من صنعها .. فالله لم يخلق موهبة عبثا ، ولابطلا مصادفة ..

ولم أفهم ذلك . ولكنى بدأت أتساءل أنا أيضا ..

فهل كل هؤلاء الأحياء لهم رسالة ؟ . . هل هم جميعا من المواهب ؟ . . هل لوكنت مت ثم عاشت أمى ، فما هى رسالتها بالضبط ؟ . ما رسالة « أبو أحمدين » البواب وقد كان فى التسعين من عمره ، وله أولاد كثيرون يعيشون بعيدين عنه ؟ . . هل أقول إن أمى قد أنقذتنى هذه المرة ؟ .

لا أقول ذلك ، إنما هى أجلت هذا القرار ، فلم تنته صعوباتى النفسية . وكلها صعوبات فوق كتفى . . فى رأسى . . فلا الطعام ولا الشراب ولا السكن ولا الحذاء هى مشكلتى . .

وإن كنت لا أعرف بالضبط ما هى المشكلة . . إننى مثل إنسان ألقى فى الماء ، وهو لا يعرف السباحة . . او إنسان ألقوه من الطائرة بلا مظلة . . أوكانت عنده مظلة ثم نزل أرضا لا يعرفها . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بلا خريطة فى يده . . أو كانت فى يده خريطة أكبر من أن يستوعبها فقد كانت حروفها غير واضحة .

يقول ابن عربى الفيلسوف الصوفى الأندلسى : لقد خضت بحرا وقف الأنبياء على شاطئه . .

فهل أنا كذلك ؟ . . لا أظن ، ولكن المعنى أعجبنى لأن بى شيئا من ذلك . فلا أرى الراحة التى يراها زملائى . ولا الهدوء الذين يعيشونه ، ولا الأمل الذى زاد على حاجتهم فراحوا ينشرونه فى كل مناسبة . .

ولم أعرف من الأستاذ العقاد أنه انتحر أو حاول ، إلا مرة واحدة . وفى يوم سألته : يا أستاذ . . هل الذى ينتحر كافر ؟ . .

فأجاب ضاحكا : ماذا نسمى رجلا شرب أربعين كأسا من الخمر ثم جاء فى الكأس الحادية والأربعين وقال قبل أن يشربها : بسم الله الرحمن الرحيم ؟ ! .

ولم أفهم ، ولابد أن عدم الفهم قد بدا واضحا على وجهى ، فعاد الأستاذ يقول : إن هذا قرار يبلغ فيه الإنسان حالة الوعى واللاوعى معا . . إنه بمحض إرادته قرر أن يفقد الإرادة . إنه بمنتهى العقل اتخذ قرارا مجنونا . . إنه قرار لا يحسب حسابا لأى شيء آخر . . لا الدين ولا الفلسفة . . ولا أى أحد . . ربما اختار بعض المنتحرين أن تكون نهايتهم نوعا من الاحتجاج على السماء وعلى الأرض . . أو نوعا من التحدى لأى شيء . .

ثم روى الأستاذ كأنه يقرأ مذكراتى : يومها يا مولانا . . لم أجد شيئا يتفق مع عقلى . . وليس لى إلا عقلى . . لم أجد منطقا لأى شيء . . وجدت كل الناس مجانين . وأنا العاقل وحدى . . وجدت كل شيء قد اختلت موازينه . . بل انعدمت موازينه . . وأنا وحدى الذى أمسك ميزانا ، ما فائدته ؟ . . ما فائدتى ؟ . . إذن فليس مرغوبا ولا مطلوبا أن أعيش . أو حتى أن أكون . فقررت ألا أكون . . فإذا كان وجودى ليس باختيارى ، فليكن موتى باختيارى . .

وضحك العقاد ليشجعنى على أن أقول : إن هناك أساليب أجمل فى الانتحار . . كأن ينتحر الإنسان فى حضن فتاة جميلة . . كأن يشرب الشمبانيا كما فعل الخديو إسماعيل فوضع فى فمه ثلاث زجاجات معا فمات . . كأن تنتحر على طريقة الرومانسيين . . تجيء محبوبتك وتقبلك ثم تخرج كيسا من السم من فمها إلى فمك . . فتتركك تموت وتتفرج عليك ، وتدعك تموت وحدك لتبكى عليك يوما وتتزوج هى فى اليوم التالى . . كأن تفعل مثل بعض الهنود . . يمشى عاريا فى أحد حقول القصب ويظل يطلق مزمارا باكيا ، فتخرج إحدى الأفاعى الضخمة ويجرى أمامها ، فإذا هى تسبقه وتلتف حوله وحول شجرة ضخمة فتعتصره حتى الموت . . أو تفعل كذلك الفيلسوف الشهير الذى ألقى بنفسه فى بركان إتنا . ونسى أن يخلع حذاءه . . فلم يسقط من فوهة البركان حتى أطار الهواء الساخن حذاءه . . فعرف الناس أنه مات . . لم تدل عليه فلسفته وعظمته وإنما دلت عليه جزمته . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبسرعة قال الأستاذ : هذه يا مولانا مناسبة جدا لكل أساتذة الفلسفة الجهلاء – هذا إذا كانت عندهم أحذية ! . .

أهانني الأستاذ دون أن يدرى . . ولكن الأستاذ قد فكر هو أيضا فى الموت . . ولابد أنه قد سخر من هذه الفكرة . ولم يعد إليها مرة أخرى . . لعله اكتشف أن للحياة معنى ، وأن له هو أيضا معنى . أو لعله أحس أن الحياة كالموت لا اختيار لنا فيه . . أو لعله عندما أحس بعظمته قرر أن يستمتع بها وأن يسجلها ، حتى لا يتعذب وهو حى ، لمجرد أن يتصور أن أحدا سوف يمسح به الأرض ، ويحرقه فى كل نار ، ويدوسه فى كل طريق . . إذن لقد قرر الأستاذ أن يعيش حياته ، وأن يسجل ما بعد حياته . . وأن يستمتع بما يراه ، وبما سوف يراه الناس بعد موته . .

وسوف أعود أنا إلى ذلك عندما أتحدث عن : الوجودية لماذا ؟ .

وكنت أتستر على محاولة الانتحار هذه ، لأنى رأيت الناس يصفون من يفعل ذلك بأنه مجنون ، أو بأنها من مظاهر الجنون . وأن الناس لا يفكرون عادة فى أسبابها ، فليس عند الناس وقت لذلك ، فماذا يحدث عندما يجد الناس أن سيارة قد داست واحدا من الناس ؟ . . إنهم يلتفون حوله . ويتقدم واحد يغطى وجه الضحية بصحيفة ، وبعد دقائق يمشى كل واحد فى طريق . . تماما كطوبة ألقيت فى الماء ، أحدثت اهتزازا فى السطح ، وسكن الماء واستقرت الطوبة فى القاع . . وفى يوم فوجئت بأن الأستاذ يقول لواحد جالس إلى جوارى :

ماذا بك يا مولانا ؟ . .

قال : والله تعبت يا أستاذ ! . .

سأله : ممن ؟ . .

– زوجتى يا أستاذ . .

– طلقها يا أخى . .

– وأولادى ؟ . .

– اترك لها الأولاد . . وأعطها راتبا شهريا . وإذا كان أولادك يهمونك إلى هذه الدرجة فمن الواجب أن تعيش وأن تعمل لتجعلهم أحسن حالا منك ! ! . .

فقال : تعبت والله يا أستاذ . .

قال : أعرف . ولكن إذا انتحرت فما هى القضية التى حللتها ؟ . . أرحت زوجتك وعذبت أولادك بفقدك . وعذبتهم مرة أخرى بالرجل الذى سترتبط به زوجتك . .

ثم ضحك الأستاذ قائلا : يا مولانا عندى حل أفضل . . اقتل زوجتك . . واتهمنى بأننى السبب . وسوف يسألوننى وأقول إننى شاركت بالرأى . ولن يعاقبنى أحد ، ولكن سوف يخففون عنك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحكم لأن الجريمة اشترك فيها أكثر من واحد . . ولن يحاكمنى أحد كما حاكموا الفيلسوف سقراط الذى اتهموه بإفساد الشباب ، فقرر هو أن ينتحر بالسم حتى لا يقتله أحد . . أراد أن يموت بيده ليكون مثلا رفيعا لتلامذته ! .

إذن فالأستاذ أصبح يسخر من هذه الفكرة . أى أنه يسخر من أنه فكر يوما ما فى أن ينتحر . . ولذلك كثرت العقاقير فى بيته ، إذن فهو يريد الحياة . وتضاعفت مؤلفاته . فالمؤلفات هى الحياة بعد الحياة ، ثم إنه يضحك أكثر . لقد أضاف لدنياه لونا ورديا .

هل أقول إنه شجع الجالس إلى جوارى على الحياة ؟ هل أقول إنه أراحه ؟ . . لا أراحه ولا أراحنى ؛ فقد أصاب الأستاذ عصفورين بحجر واحد . . أصابنا معا . ولكنه لا يعرف شيئا مما أعرف ، ولا يعانى مما أعانى . . غير أن الحق معه فى أن أحدا لا يفكر إن كان قتل النفس حلالا أو حراما . . إن قتل الغير حرام ، ولكن قتل الإنسان لنفسه لا هو حرام ولا هو حلال . . إن كل إنسان قد أقام فى داخل نفسه محكمة ، هو القضاة والشهود ووكيل النيابة والمحامى ، ثم إنه هو وحده الذى يقول : محكمة . . حكمت المحكمة حضوريا بالإعدام شنقا أو حرقا أو غرقا . .

وفى لحظة واحدة تختفى المحكمة والمتهم والشهود والدنيا معه . . دنياه هو !

كانت طويلة جدا تلك الساعات والأستاذ يحدثنا عن أنفسنا . . جارى وأنا . . ولم يكن مألوفا أن يذكر أحد اسم شوقى أمير الشعراء . . فالأستاذ لا يطيقه . . ويسخر منه ويصف شعره بأنه مثل السبحة . . كل بيت له وجود مستقل . ولذلك يمكن أن يوضع البيت الأخير مكان البيت الأول . . ولكن القصيدة كما يراها الأستاذ مثل الكائن الحى . . العين فى مكانها والأذن والأصابع والقلب . إن القصيدة كائن حى . . وترابط الأبيات ترابط عضوى . . وليس كذلك شوقى والمتنبى وأبو تمام وشاعرى المفضل محمود حسن إسماعيل الذى كان يكرهه العقاد بصفة خاصة .. وكنت أجد فى حبى لمحمود حسن إسماعيل تمرداً على الأستاذ وخيانة يومية له !

ثم تشجع واحد فأنشد أبياتا من قصيدة نظمها شوقى عن الطلبة الذين ينتحرون بسبب صعوبة الامتحانات – ولست واحدا من هؤلاء ، وربما كانت مشكلتى أننى أنجح بتفوق دائماً . ولكنى ألقى ما يلقاه الراسبون الفاشلون : الكثير من الإهمال واللامبالاة . . ولست ألوم أحدا . فلا طاقة لمن حولى بهذه المعانى .

وقف جارى ولكن الأستاذ طلب إليه أن يجلس ، وإذا شاء أن يقف فليضع شوقى وقصيدته تحت قدميه ! .

ولكنه مضى يقول :

ناشئ الورد من أيامه حسبه الله ، أبالورد عثر؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سدد السهم إلى صدر الصبا ورماه فى حواشيه الغرر
كل يوم خبر عن حدث سئم العيش ، ومن يسأم يذر
لامه الناس وما أظلمهم وقليل من تغاضى أو عذر
قال ناس : صرعة من قدر وقديما ظلم الناس القدر
ويقول الطب : بل من جنة ورأيت العقل فى الناس ندر
ويقولون : جفاء راعه من أب أغلظ قلبا من حجر
ليس يدرى أحد منكم بما كان يعطى ، لو تأنى وانتظر
رب طفل برح البؤس به مطر الخير فتيا ومطر
وصبى أزرت الدنيا به شب بين العز فيها والخطر
ورفيع لم يسوده أب من أبو الشمس ؟ ومن جد القمر ؟
فيم تجنون على آبائكم ألم الثكل شديدا فى الكبر
وتعقون بلادا لم تزل بين إشفاق عليكم وحذر ؟
قاتل النفس – ولوكانت له – أسخط الله ، ولم يرض البشر !

وكأن الأستاذ لم يوجعنا بما فيه الكفاية فقال : يامولانا إذا أردت أن تجد سبباً أحسن للموت وجدنا لك .. كل شيء موجود هنا يامولانا .

ثم ضحك عاليا ليقول : هناك شاعر أندلسى « هايف » قال مرة :

الحمد لله بلغنا المنى لاحد فى الخمر ولا فى الغنا
قد حلل القاضى لنا ذا وذا وإن شكرناه أحل الزنا !

وانتهت الجلسة هذه المرة ، وكأنها محكمة بلا قضاة ولا شهود ولا محامين ولا متهمين ، إنما كان الأستاذ كل هؤلاء ، وكانت ضحكته العالية مثل البرق والرعد معا . . تسوق سحبا قاتمة فتمطر دموعا فى قلوبنا . ونزلت السلم الصغير . . ويدى على قلبى يكاد يسقط منى . . وعلى غير العادة لم أمش عائدا إلى البيت فى إمبابة .. أتذكر كل ما دار فى هذه الجلسة . . إنما اتجهت إلى المترو يحملنى إلى حيث أجد شجرة فى حديقة الأسماك أنام تحتها . . ونمت لأجد النمل ، ككل مرة ، يسعى حيا نشطاً على ملابسى . . ومن حولى الأطفال الصغار يلعبون ويضحكون . إنهم آمال حية ، إنهم مفردات الحياة الجميلة ، إنهم التحدى الأبدى للموت .. وغدا يكبرون كما كبرنا . . ثم لا يعرفون ، ولكنهم سوف يستمرون . . أو تستمر بهم الحياة . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى ذلك اليوم أيضا سمعت من أحد أقاربى : والله يابنى أنت موهبة .. أنت بطل ! ..

كل ذلك حدث وتزاحم واحتشد فى يوم واحد .

إذن فلابد أن شيئا آخر غير الموت فى قاع النيل ينتظر هذا الذى يسمونه موهبة .. ولم أكن أعرف ذلك ..

وكان لابد أن أنقذ نفسى من نفسى . ولا أدعى أننى استطعت ذلك ، ولكن كتبا أخرى تداولتنى . . فتنقلت معها وبها إلى حالات أخرى .. هذه الكتب ضبطت عدسة عينى على الخارج .. على خارجى .. بعيدا عن مخاوفى وهمومى ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنهـا أصدَاء الطُفولـة !

كنت أرى فى الريف من يمسك ورقة ويشرب وراءها كوبا من الماء أو الشاى .. أما الورقة فقد كتبت عليها آية من القرآن الكريم . أو حديث نبوى شريف . ويقال إنها دواء يشفى من ألف داء – والله أعلم – وكان الناس يجدون فيها الشفاء . فهل الورق دواء ؟ .. هل القرآن دواء ، أو هو الإيمان الذى هو دواء ؟ ..

لقد كان الإمبراطور الحبشى منليك الثانى إذا أحس بآلام فى بطنه ، فإنه يفتح الكتاب المقدس ويبتلع صفحات وأحيانا أسفارا كاملة .. وقد ابتلع سفر « أيوب » أكثر من أربعين مرة . ويقال إن ابتلاع أوراق الكتاب المقدس هو الدواء الحقيقى لكل آلامه ..

ولابد أننى أيضا أنتسب إلى هذه الفصيلة من الناس الذين يبتلعون الورق من كل لون وكل حجم . كنت ولا أزال . فقد أصبح واضحا الآن لى ، ولغيرى ، أن دنياى ورق فى ورق .. حدودها عند المكتبات .. وحراسها باعة الصحف .. وأعداؤها باعة الحمص والسودانى ، فقد رأيت كتبا كثيرة – ومن بينها كتبى – يلفون فيها بضائعهم ..

وعندما كانت توجعنى عيناى من القراءة .. أو من ضعف النور .. أو ضعف نور عينى ، كنت أتمنى لو أن الإنسان اخترع شيئا جديدا غير الورق .. واخترع الإنسان الأسطوانات ، وبعد ذلك الكاستات ، فهى كتب مسموعة .. ثم الأفلام .. وهى كتب مسموعة ومنظورة معا .. ولكنى لم أستطع أن أعتمد على أذنى كثيرا فى الثقافة العامة .. فعندى المقدرة على أن أعرف شكل الكتب وأحجامها وألوانها .. ونوع الخط ونوع الورق .. وقد تدربت عيناى على ذلك تدريبا طويلا .. فعندما أنظر إلى الكتب وقد تكدست بعيدا عن عينى .. فإننى أقول لنفسى قبل أن أبدأ فى البحث عن كتاب : إن كتاب « فلسفة الجمال » للفيلسوف هيجل هو من أربعة أجزاء .. ورقها أصفر ، والعناوين بالأزرق ، ومجلد بورق شفاف .. وكتاب « الفلسفة الغربية » لبرتراند رسل . مجلد واحد ، لونه بنى ، والعنوان أصفر .. وكتاب « الشيطان » للشاعر الإيطالى بابينى ، له غلاف أسود ، والعنوان أحمر . ورواية « الإخوة كرامازوف » من مجلدين .. الغلاف أزرق ، والعنوان على مساحة بيضاء . وقد تمزق الغلاف فألصقته بصمغ أسود رديء .. وهكذا .. ولاتزال عندى هذه القدرة أو هذه العادة أو هذه الفراسة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعندى ما هو أكثر من ذلك أيضا . فقد قرأت من عشرين عاماً كتاب « تاريخ الفلاسفة السياسيين » لجورج كاتلين . وهو من أحسن وأمتع الكتب التى عشت معها طويلا . وكان مدخلى إلى كثير من فلاسفة السياسة . ومنذ سنوات زرت د . جورج بطرس طبيب الأذن والحنجرة المشهور ، وهو من أكثر الأطباء ثقافة ومرحا . وفجأة وجدت هذا الكتاب عنده . فنهضت واقفا . وقلت له : إننى أريد أن أختبر قدرة قديمة عندى .. فى هذا الكتاب وعلى الصفحة اليسرى وفى الهامش فى الفصل المكتوب عن الفيلسوف الإيطالى ماكيافللى توجد عبارة . . إن موسولينى قد جعل موضوع رسالة الدكتوراه التى تقدم بها لجامعة روما عن الفيلسوف ماكيافللى .

وبسرعة التقطت الكتاب ، ونفضت عنه التراب ، وقلبت فيه ووجدت الصفحة ووضعت أصبعى على الهامش . وأسعدنى ذلك . ثم كافأت نفسى بأن أخذت الكتاب دون إذن من د . جورج بطرس الذى ضحك قائلا : والله انت شاطر مرتين .. مرة لأنك عرفت ما تريد وأين تريد ، ثم أنك استوليت على هذا الكتاب ! . .

ولم يكن اهتمامى بموسولينى فى ذلك الوقت .. إنما كان اهتمامى بأحد تلامذته : هتلر .. هل لأن هتلر أعظم ، أو لأن الألمان أروع من الإيطاليين .. أو لأن موسولينى قد اقترن اسمه بهزائم متكررة للقوات الإيطالية .. أو لوحشيته فى ليبيا وفى الحبشة ؟ . . ولكن النازية بنت الفاشية وماكيافللى هو أبو السفالة السياسية فى عصر النهضة والعصور الحديثة . وفى ذلك الوقت وجدت كتابا بعنوان « الأمير – فلسفة الغاية تبرر الواسطة » من ترجمة عبد الله حسن .. ولا أظن أنه كان مترجما ، إنما كان ملخصا .وإن كانت قد بهرتنى العبارات الإيطالية واللاتينية فى هذا الكتاب . وكنت فى ذلك الوقت أدرس اللغتين الإيطالية والألمانية معا .. أما اللغة الإيطالية ففى أحد الأقسام الليلية فى المدرسة الإيطالية بالمنصورة .. وأما اللغة الألمانية فقد كان يعلمنا إياها رجل ساعاتى اسمه « هيرش » – وكان لى صديق من أصل ألمانى .. أمه ألمانية . ولذلك كنت أشعر أنا وآخرون أنه أجنبى : أشقر والعينان زرقاوان والشعر ذهبى ، ثم إننا لا نجده معظم الوقت . إذ لابد أن يكون فى بيته فى أوقات منتظمة . لا أعرف لماذا . ولكنه طيب لطيف وأحببته – أو هكذا أحسست نحوه .

وكنت أحب أن أستمع إليه وهو يحدثنا عن الأدب الألمانى الذى لم أكن أعرف منه أو عنه شيئا كثيرا .. فهو أول من حدثنى عن مسرحية « فاوست » للشاعر الألمانى جيته .. وهو أول من حدثنى عن « هكذا قال زرادشت » للفيلسوف الألمانى نيتشه .. واهتديت إلى ترجمة د . محمد عوض محمد لفاوست .. وقرأت «آلام فرتر» لفاوست أيضاً من ترجمة أحمد حسن الزيات .. وإن كان عبد الرحمن بدوي قد ترجمها بعنوان «آلام الفتى فرتر» .. وبدأت الأسماء الألمانية تجري على لساني ، أو لساني يجري بها ووراءها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم كان كتاب الأستاذ العقاد عن « تذكار جيتى » الكتاب صغير مثل مفاتيح الخزائن الكبرى . ولا يوجد كتاب للأستاذ العقاد لا يبدأ بعبارة تشبه هذا المفتاح . فعن طريقها تهتدى إلى أعماق الشخصيات التى يتناولها . وفلسفة العقاد تدور كلها حول الأشخاص ، لأن التاريخ يصنعه الأشخاص الممتازون . والممتازون متنوعون . وهم لذلك معقدون . وكل الأجهزة الدقيقة معقدة . والعقاد هو صانع المفاتيح الأولى فى الفكر العربى . ولذلك فكتابه عن الشاعر الفيلسوف جيته تحفة أدبية . وبعد أن قرأت كتاب الأستاذ ، رجعت إلى آلام فرتر وإلى فاوست .. ووجدت أن محمد عوض محمد قد ترجم جيته عن الألمانية . وترجمه شعرا أيضا ! ! وأن أحمد حسن الزيات قد ترجم « آلام فرتر » عن الفرنسية .. ولم أدرك الفرق فى ذلك الوقت ، إلا أن د . محمد عوض محمد قد ارتفع فى عينى ، واتجهت أبحث عن أعماله الأخرى فى المكتبات . ووجدت ترجمة له عن مدارس النقد الأدبى ، ولم أفهم منها شيئا .

وفى ذلك الوقت قرأت مقالا للدكتور محمد مندور فى مجلة « الرسالة » يصف الأستاذ بأنه جورجياس مصر.. ومن معلوماتى القليلة فهمت أن د . مندور يصف الأستاذ بأنه سفسطائى ومغالط مثل فيلسوف الإغريق جورجياس .. وقد ضرب د . مندور لذلك عشرات الأمثلة . أما الأمثلة فهى التى رأيتها حججا منطقية مقنعة .. أو رأيتها صروحا فلسفية وعمارات فكرية .. ولم أهتم كثيرا بما قاله د . مندور ، بل كنت كلما رأيت له مقالا زحفت عليه بعينى وتجاوزته إلى ما بعده من المقالات الأخرى . .

ولكن فى ذلك الوقت أيضا وجدت مقالات عديدة للدكتور محمد مندور ، ولم أجد من السهل أن أتجاهلها . قرأته مرة ثم عدت إليه . إنه مختلف عن الأستاذ فى الأسلوب وفى الثقافة .. وإذا كان أسلوب الأستاذ وابور الزلط ، فإن عبارات محمد مندور لها صوت ماكينة الخياطة .. فالعقاد يسوى الأرض بقوة . ومحمد مندور يغزل خيوط الفكر فى همس .. ولذلك طلع علينا د . محمد مندور فى ذلك الوقت بنظرية « الأدب المهموس » .. وقالوا المهموز .. وقال الأستاذ : بل الأدب المنحوس لأديب ملحوس ..

ويضحك عاليا ..

وكان من عادة الاستاذ أن يتلاعب بالأسماء أو يقلبها ويجعلها مادة للفكاهة . . فهاجم شخصية مسئولة عن الكهرباء أو إدارة النور فى مصر الجديدة ، اسمه : عصمت عكاشة .. فقال : يا مولانا هل من المعقول أن يكون مسئولا عن الإضاءة رجل : اسمه عصمت ، وهذا اسم تركى ، وأبوه اسمه عكاشة ، وهذا اسم فرقة هزلية ؟ ! . .

وتفسير ذلك أن كل هذه الأسماء التى تنتهى بتاء مفتوحة هى أسماء تركية : عصمت وعفت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومدحت وعزت ورأفت . أما الشكل العربى لها فهو : عصمة وعفة ومدحة وعزة ورأفة .. أما عكاشة ، فهو يشير إلى فرقة عكاشة المسرحية الكوميدية ! . .

وغير ذلك من التفسيرات الغريبة المدهشة .. والتى تدل على أن الأستاذ يرى أن كل شىء لابد أن يكون منطقيا . وأن يكون كل الناس واعين بنفس درجته من الوعى .. وقد سئل الأستاذ عن كلمة « العقاد » ، فقال إن أجداده كانوا يعملون فى « عقد » الخيوط الحريرية .. وقال أيضا : إذا كان أجداده يعقدون الخيوط فإنه يحلها .

تماما كما كان سقراط يقول عن نفسه : إن أمه كانت مولدة .. وإنه هو أيضا يقوم بنفس العمل ، لأنه يولد المعانى من عقول الناس !

وهو من أجل أن يكسب قضية من القضايا فإنه يقلب الدنيا على رأس خصمه الفكرى .. ولعل ذلك هو ما يسميه د . مندور بالسفسطائية .. أى المغالطة فى التفكير . ولكن لم أجد فى ذلك الوقت أن الأستاذ العقاد كان كذلك .. أو لا أدعى أنى اهتديت إلى مثل هذه المغالطات التى يجعلها الأستاذ نكتة . والنكتة سلاح من الأسلحة . لأنك عندما تجعل إنسانا مضحكا أو مثيرا للضحك ، فقد جردته من كل مقومات الإنسان المحترم ، وألبسته زى البهلوان أو الأراجوز أو الحيوان ..

وفى صالون الأستاذ العقاد التصقت صفات محددة بعدد من الناس .. لا يكاد يراهم حتى يذكرنا بأسمائهم فنضحك . حتى نسينا أسماءهم الحقيقية . وأصبحت الندوة حفلة تنكرية . هو يضحك ونحن أيضا . لقد انهزموا تماما أمامه ، ولكن رأوا فى هذه الهزيمة تصريحا لهم بأن يكونوا أقرب إليه ، وأحب أيضا !

ولا أعرف من الذى قال لى فى ذلك الوقت : إننى حزين .. وإننى أرى الدنيا بصورة جادة . وإن فى الدنيا مرحا وهزلا ولكنى لا أرى ذلك ..

ولا أعرف من الذى نبهنى إلى أننى ألف كوفية حول رقبتى تشبها بالأستاذ العقاد . وكنت أفعل ذلك دون سبب معقول . وبسرعة نزعت الكوفية ، فإلى جانب الأستاذ قد ظهر مؤلفون كثيرون مختلفون . وإن كان الأستاذ العقاد أعظمهم .. وبدأت ألاحظ أننى أقول : من رأيى .. وأنا شخصيا قد قرأت .. وأنا لا أتفق معه .. ولم يفلح فى إقناعى .. ولم أفكر فى هذا الموضوع كثيرا .. إلخ .

وإن كان لهذه العبارات معنى ، فهو أننى بدأت أختلف أو أحاول أن يكون لى رأى خاص . وأننى أخذت أضيق بمن يصفنى بأننى العقاد الصغير . هل أنا الذى أوهمت زملائى بذلك ؟ هل أنا الذى شجعتهم على أن يصفونى هكذا ؟ أعتقد أننى فعلت ذلك .. وإن كنت لا أدرى ما الذى يمكن عمله أو قوله أو كتابته أو قراءته لكى يكون الإنسان كالعقاد الصغير أو الكبير .. ولكن فى ذلك الوقت فى مدرسة المنصورة الثانوية ، كنت أرى بعض الزملاء بأوصاف مختلفة : هذا من يصفونه بأنه الشاعر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الجارم الصغير.. أو شوقى الصغير ، أو طه حسين الصغير.. أو المنفلوطى الجديد .. ولا أظن أننى كنت معروفا فى المدرسة بهذه الصفة . وكل ما أدركه بوضوح هو أننى كنت طالبا منتظما أو « نظاميا » مجتهدا ..وعندما يجىء مفتش أو مدير إلى المدرسة فلابد أن يقدمونى إليه مع صفات كثيرة تخجلنى .. وإن كنت أشعر بالخجل لمجرد استدعائى ووقوفى أمام الزائر الكبير دون أن أعرف ما الذى أفعله أو أرد به على كلامه أو أسئلته .. وكانت هذه المقابلة الغريبة المفاجئة تنتهى عادة بعبارة لناظر المدرسة أو مدرس أول اللغة العربية أو الإنجليزية : بأن هذا التلميذ خجول جدا . ولكنه أحسن تلميذ عندنا ! . .

ولأسباب ليست واضحة عندى تماما أقبلت على قراءة سلسلة كتب عنوانها « جولة فى ربوع أوروبا » و « جولة فى ربوع أفريقيا » و « جولة فى ربوع آسيا » للأستاذ محمد ثابت .. هل أقول إنها بداية الانفتاح الفكرى فى حياتى كلها ؟ هل أقول إن هذه الكتب قد غيرت مجرى حياتى ؟ .. هل هى المسئولة عن أننى قلبت عينى ، فبعد أن كنت مسلطا على نفسى ، أصبحت أتجه إلى العالم الخارجى .. وأصبح هذا الاتجاه أملا أو حلما ؟ .. هل صحيح أننى كنت أحلم فى ذلك الوقت بأن أرى الدنيا التى يتحدث عنها الأستاذ ثابت ؟ .. هل تمنيت أن أدور حول الأرض وأن أرى كل شىء بعينى وألمسه بيدى ؟ .. إن صور الأستاذ ثابت أكبر دليل على أنه ذهب ورأى وعاش ثم عاد فكتب ..

لا أعتقد أننى تمنيت شيئا من ذلك .. ولا أعتقد أن هذا الكتاب قد بهرنى كثيرا . ولكنه غير مسارى الفكرى وجعلنى أتجه إلى قراءة الرحلات .. أو الجغرافيا أو تاريخ الشعوب ..

فقد كان عالمى فى ذلك الوقت محدودا جدا . ولا أظن أننى كنت أضيق به . فأنا أمشى كل يوم فى شارع واحد لم أغيره .. بين المدرسة والبيت . وبين البيت والمكتبة الفاروقية على النيل .. ثم أتجه إلى حى توريل وبعد ذلك إلى حى شجرة الدر ، مارا على الكوبرى العلوى بجوار مدرسة البنات الثانوية .. وبعد ذلك أعود إلى البيت . ولا أعتقد أننى لاحظت الأشجار أو الحدائق أو البيوت الكبيرة .. أو نظرت إلى النيل أو رأيت الجانب الآخر منه .. فنحن ، أنا وأصدقائى ، نتكلم طول الوقت .. وتمر الساعات ونحن نتفادى الاصطدام بالناس أو بالعربات دون وعى كامل ..

وفجأة ظهر لنا صديق جديد .. إنه مختلف تماما . إنه لا يقرأ إلا كتب التاريخ . وهو يتحدث عن مصر كثيرا . وعن محمد على والحملة الفرنسية وعن مذكرات شفيق باشا المصرى .. وعن عرابى باشا .. وعن شجرة الدر التى حكمت مصر والتى استخدمت القباقيب الخشبية أسلوبا فى القتل – وفى كل مرة نتحدث فيها عن أديب أجنبى ، يتحدث هو عن أديب مصرى أو عربى .. هل لأن أباه مدرس اللغة العربية ؟ .. هل لأن أباه أزهرى وعمه ناظر مدرسة ؟ .. وكان الاستماع إليه متعة مضمونة .. فهو يعرف الكثير ، وهو قادر على الإثارة وعلى أن يتكلم وحده ليلة كاملة ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفجأة كنت أمشى وحدى على الكوبرى العالى ، فاقتربت منى فتاة . طالبة .. وسألتنى : كم الساعة ؟ ولم تكن معى ساعة . فقلت دون أن أراها بوضوح : السابعة ..

ومضيت .وسبقتها ، ولكنى كنت غير متوازن الحركة أو الخطوة .. فقد أحسست أنها فاجأتنى . أربكتنى . وأنها تمشى ورائى تنظر إلى .. وكان من عادتى إذا مشيت أن أكون مسرعا ، وألا أنظر يمينا أو شمالا .. كالألف .. أو كالسهم .. وربما كان تفسير ذلك أننى لا أريد أن أنظر إلى أحد .. أو أن ينظر إلى أحد .. فليست عندى هذه الشجاعة على المواجهة .. ولا القدرة على خلق صداقة جديدة .. لم أكن اجتماعيا .. فقد اعتدت على عدد من الأصدقاء ، لا أزيد عليهم ، ولا أخرج عنهم .. وكما اعتدت عليهم ، اعتدت أيضا على الحوار معهم فى موضوعات محددة ..

وظهرت هذه الفتاة كثيرا بعد ذلك .. ولم أستنتج من ظهورها أى معنى .. فقد كنت أراها بالقرب من بيتنا .. وفى طريقى إلى المدرسة ذهابا وإيابا .. ورأيتها تجلس على عتبة البيت الذى فى مواجهة بيتنا .. ثم رأيتها فى بيتنا .. وكان حادثا مروعا . كيف ؟ لماذا ؟ ولم أعرف ما الذى أفزعنى فى ذلك .. إنها هى الأخرى طالبة ، وتريد أن تستعير كتاب « عبقرية محمد » للأستاذ العقاد.. ولم أذهب فى استنتاجى إلى أبعد من أنها تريد كتاباً .. وعندما أعادت الكتاب وجدت خطابا منها .. كان مفاجأة .. لا أذكر شيئا الآن مما قالته .. ولكن بعد أن قرأته مزقته فورا . فقد استنكرت ذلك . ولكن بدأت أنشغل بالتفكير فيها بعض الوقت .. أما ملامحها : فهى سمراء سوداء العينين سوداء الشعر .. نحيفة .. إذا مشت كانت مثل البطة أو الإوزة أو راقصات الباليه . تتساند على الجانبين وتفتح القدمين .. ولم أعد أراها بعد ذلك .. وقيل لى فيما بعد إن هذا هو الحب – أى بداية الحب .. وإنها هى التى بدأت ، لأننى لم أحاول ذلك .. وإن هذه هى القاعدة : إذا أنت طاردتها هربت منك ، وإذا أنت هربت منها طاردتك .. ولم تكن هذه سوى عبارة ضمن عبارات كثيرة عن المرأة وعن العلاقة بين الشبان . أو بين الرجال والنساء ..

هل عندما رأيت فيلم « شمشون ودليلة » أعجبتنى البطلة هيدى لامار ، لأن بها شبها من هذه الطالبة ؟ تصورت ذلك بعض الوقت . اعتمادا على قاعدة فى السلوك الإنسانى أيضا : أن الحب الأول هو الحب المستمر أى الذى يظهر دائما . . وأن الوجه الأول هو الأول والأخير؟ . .

ولكن هذه الحادثة التى هزت هدوئى بعض الوقت لم تكن حبا ، ولا اهتماما . . إنما هى مفاجأة أدت إلى استطلاع – أى إلى رغبة فى أن أعرف من هى ؟ ولماذا ؟ حتى هذه الرغبة لم تتوافر . . فلم أكن فى ذلك الوقت مفتوح العينين على الخارج ، لقد غرقت فى نفسى . . ومع نفسى ، فأنا لا أحتاج إلى عينين .. إلى أذنين فقط . . بل إننى مع نفسى بلا عينين ولا أذنين ! . .

هل عندما التقيت بالممثلة الإيطالية اليانورة روس دراجو ، بطلة أفلام كثيرة مثل : الجنس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والدب القطبى الشمالى ، كان اهتمامى بالكتابة عنها ، أنها شبيهة بتلميذة المنصورة ؟ لقد توهمت ذلك وأنا افتش فى أعماقى عن الينابيع المتدفقة فى سلوكى الاجتماعى ومذهبى الفلسفى . . لا أظن ذلك ، فليس بينهما شبه من أى نوع . إلا أن التلميذة سمراء مصرية ، والنجمة الإيطالية سمراء خمرية إيطالية .. وإلا أن المصرية قد اعترضتنى ومضت واختفت .. وأن الإيطالية كانت بطلة لأفلام من تأليف أدباء عظماء أعجبونى وشغلونى .. فليست هى التى تهمنى ولكن الذى تقوله ، والذى تعبر عنه ..

ولم تكن كتابتى عن وجوه الشبه بين وجه ظهر واختفى فى طفولتى ، وبين هذه النجوم العالمية اللامعة ، إلا افتعالا كبيرا وإلا ترييفا متعجلا لأصول الأشخاص والعلاقات والأفكار فى أعماقى .. وإلا محاولة مبكرة جدا لأن أفتش فى الماضى . فلم يكن الماضى ، يوم حاولت ذلك ، بعيدا سحيقا .. إنه بضع سنوات لا تصنع تاريخا لكاتب سوف يكون ! . .

ومن العبارات التى التصقت برأسى كثيرا عبارة عادية جدا تقول : إن التعليم فى الصغر كالنقش على الحجر ، والتعليم فى الكبر كالنقش على الماء ..

ولابد أن تكون هناك أسباب قوية لبقاء هذه العبارة المتواضعة التركيب زمنا طويلا فى نفسى ..

وأذكر أننى كنت أحاول فى ذلك الوقت من دراستى الثانوية أن أسجل « مذكراتى » – وهى ليست إلا حوارا وهميا مع آخرين . . أى مع نفسى . وفى ذلك الوقت وجدتنى أكتب حديثا أو نشيدا بعنوان : إليها ..

ومن الغريب أنه لم يكن هناك أحد فى حياتى – حتى كلمة « حياتى » هذه جوفاء من أى معنى . فلم تكن هناك حياة . إنما كلام فى كلام وانسحاب مع خوف شديد من البعد عن الكلام وعن الشارع الوحيد والأصدقاء الثلاثة . وعرفت فيما بعد أن كلمة « إليها .. » .. هذه مأخوذة من اسم مقطوعة موسيقية لمحمد عبد الوهاب .. فالكلمة مستعارة . .

وكان لى قريب أكثر شجاعة منى وأشد حيوية . وكان يحدثنى عن مغامراته فى الحب فهو يعرف – كيف ؟ – فتيات كثيرات . ويلتقى بهن . ويحب .. ويقابلهن سرا ، ويبعث إليهن بخطابات ، ويتلقى ردودا عليها – وكنت لا أجد لهذه « الأفعال » أى معنى . ولم أفكر فى ذلك . وقد عرفت فيما بعد ما أضحكنى : إنه هو الذى يبعث لنفسه بالخطابات الغرامية . والخطابات مكتوبة بحبر أخضر على ورق أزرق .. وكان يعرض علينا هذه الخطابات . ولم أتجاوز الدهشة من ذلك ولذلك ، إلى محاولة أن أعرف ..

هل تأثرت – لا شعوريا – بهذا الذى أسمعه أو أقرؤه . وحاولت أنا أيضا بصورة خجول أن تكون لى « واحدة » وأن أكتب إليها ؟ ! .. ربما كان ذلك ، وعندما عدت إلى ما كتبت وجدت أننى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذكرت أسماء عدد كبير من الناس : بسمارك وهتلر ونيتشه والمتنبي وشوبنهور وماكيافللي والعقاد والعقاد والعقاد ومحمود حسن إسماعيل .. وفى استطاعتك أن تتخيل ما الذى يمكن أن يقال لفتاة وهمية إذا جاءت هذه الأسماء فى خطاب غرامى إليها ! . .

فى ذلك الوقت كنت أحاول كالأطفال الصغار أن تكون لى طريقة خاصة فى الكتابة . فالأطفال الصغار إذا تعلموا كلمة جديدة . فإنهم يسرفون فى استخدامها ثم يقلبونها .. وكذلك كثير من الكلمات .. إنهم يلعبون بمفرداتهم الجديدة .. وهم بذلك يؤكدون ذواتهم . وكنت أقول فى مذكراتى : لماذا نقول إن مقالا قد نشرته مجلة كذا « بقلم » فلان ؟ .. لماذا لا نقول « بألم » فلان – أى أن المقال من واقع ألمه ؟ .. ولماذا نقول : تأليف فلان .. ولا نقول « تأليم » فلان – أى من واقع عذابه وألمه ؟ ..

هل سبب ذلك أن الحوادث التى تقع فى الطفولة تبقى هناك ؟ نعم . وهذا هو الذى جعل كبرى مدارس علم النفس عندما تبحث عن عذاب الشباب والرجولة . تعود إلى التنقيب عن الذى حدث فى الطفولة .. إننى أجد هذا المعنى ينطبق تماما على نفسى أو نفسيتى ، فالذى أوجعنى فى طفولتى انتعش فى رجولتى ، وبنفس الحيوية . فإن كان إهانة ، رددتها حتى لو كان ذلك متأخرا .. وإن كان ذلك رغبة فى شراء كتاب ، عدت إليه فاشتريته .. وأذكر أنى اكتشفت فى مرحلة متأخرة من حياتى أن أحد أقاربى قد أيقظنى من النوم ليسألنى عن كتاب أخذته من بيته دون إذن منه .. فتركته أمى ، يقلب فى كل مكان فى البيت . ويلقى بكتبى كلها على الأرض وملابسى . دون أن أتحرك من مكانى على السرير . ولم يجدوا الكتاب . وبعد أن يئسوا تماما من أن أرد عليه بكلمة واحدة أخرجته من تحت المخدة . ومنذ سنوات قليلة اكتشفت أن فى مكتبتى تسع نسخ من هذا الكتاب : ثلاثا بالإنجليزية وترجمات فرنسية وإيطالية وألمانية وأسبانية .. ومن الغريب أننى اشتريت ترجمة عبرية ، رغم أن معلوماتى فى اللغة العبرية متواضعة جدا .. أما الكتاب فهو « الأكاذيب التقليدية » للكاتب المفضل عند الأستاذ العقاد : ماكس نورداو ..

وعرفت فيما بعد أن سبب إعجابى بالممثلة النمساوية الأصل هيدى لامار والممثلة الإيطالية اليانورة روس دراجو ، كان لسبب آخر ، وهو سبب حقيقى ، فقد كانت لى أخت غير شقيقة . ماتت . وحزنت عليها بعد وفاتها لسنوات طويلة . فقد تمنيت أن تعيش . كانت سمراء طويلة جميلة ، وكانت تحبنى كثيرا . وقد وعدتها وأنا فى الخامسة من عمرى أن أتزوجها إذا كبرت . وكانت تطلب منى أن أقول ذلك كثيرا أمام الناس ليضحكوا جميعًا ..

ووجدت فى « مذكراتى » أيضا مثل هذه العبارة : من تعلم تألم .. أى التعليم تأليم .. ولذلك كان الألم نقشا على الحجر .. وهذا الحجر هو فى أعماق كل واحد منا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مثلا : ولا ذنب للأستاذ محمد ثابت صاحب هذه الجولات فى كل ما حدث .. ففى إحدى الحصص عندما تحدث المدرس عن سكان الحبشة قال إنهم : فى لون الكاكاو ..

وبمنتهى السذاجة وحسن النية طبعا ، سألت المدرس : ما معنى كاكاو ؟ .

وكان ضحك زملائى من التلامذة عشرات الصفعات على وجهى ، والدقات على رأسى حتى أحسست بغيبوبة تامة . ولم أكن قد رأيت الكاكاو .. فقد أكلت الشيكولاته ككل الأطفال . ولكن لم أعرف أن الكاكاو يدخل فى تركيبها ؟

وأعتقد أننى أمضيت عشرات السنين لا أذوق الشيكولاته وكنت لا أبدى سببا واضحا لذلك وكنت أقول إنها تسبب لى حساسية . ولم يكن ذلك صحيحا . إننى كرهتها .. ولم تكن الأسباب واضحة عندى طول الوقت ..

وبدون تفكير عندما وجدت كتاب « جولة فى ربوع أفريقيا » للأستاذ ثابت تركته ملفوفا فى ظرف أصفر سنوات دون أن أقربه .. ولكنى اتجهت إلى « جولة فى ربوع أوروبا » . هل لأننى كنت مشغولا بالفكر الأوروبى ؟ أو هل السبب هو أن الحديث عن أفريقيا هو عن أناس فى لون الكاكاو ؟ ربما كان السببان معا ..

ولابد أن دفاعى عن الأستاذ العقاد الذى لم يسافر إلى الخارج إلا ثلاث مرات : مرة لأداء الحج ، ومرة إلى فلسطين ، ومرة ثالثة إلى السودان .. سببه أننى لا أحب السفر . أو على الأصح لا أستطيع . ولذلك رأيت أنه ليس من الضرورى أن يسافر الإنسان ليعرف الدنيا. إنها تجىء إليه فى الكتب – وكان الأستاذ يردد ذلك . وكان يقول : لا يوجد شىء فى الخارج إذا لمسته الآن حلت فيك البركة والحكمة . من أين جاء سقراط بفلسفته وهو الذى لم يترك بلاده ؟ .. ومن أين أتى بها أبو العلاء المعرى وهو الذى لم ير بلاده .. وكذلك الشاعر الأعمى هوميروس ؟ ..

هل كنت مقتنعا برأى الأستاذ العقاد ، أو هل لأسباب عميقة كرهت السفر إلى بلاد أهلها فى لون الكاكاو . ثم كرهت السفر عموما ؟ .. ومن الغريب أننى جاهرت بذلك ، مع أننى لم أملك وسيلة للسفر .. فالإنسان يرفض ما يقدر عليه . ولا يرفض ما يعجز عنه .. فالإنسان يقول مثلا : لا أحب السفر ، رغم أننى أستطيع ذلك .. ولكن لا يقول : لا أحب السفر لأننى عاجز عن ذلك ..

إذن فالألم فى الصغر كالنقش على الحجر . والألم فى الكبر كالنقش على الماء – هذه العبارة أقرب الآن إلى المعنى الذى أحاول أن أوضحه ..

وإذا كان « لجولات » الأستاذ محمد ثابت من أثر فى نفسى فلابد أن يكون هكذا : إنها رحلات غير مشبعة وغير مقنعة .. فهى مشروع مذكرات أو ملاحظات خاطفة لم تصبح كتابا بعد .. أو إن الرحلات يجب ألا يكتبها الإنسان هكذا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأعتقد أن هذا المعنى هو الذى بقى فى نفسى بعد ذلك ، فأصدرت كتبا عن الرحلات هى أقرب إلى الأدب والتاريخ والفن والفكاهة والفلسفة والتحليل النفسى للشعوب .. ولم يكن الأستاذ محمد ثابت هو السبب المباشر .. إنما كانت الرحلات نفسها هى السبب .. وكانت مؤلفات كاتب أمريكى كبير هو « جون جنتر » .. فقد أصدر سلسلة من الكتب بعنوان « فى داخل .. أفريقيا .. وأوروبا .. وروسيا .. وأمريكا اللاتينية » وكان هذا المؤلف الأمريكى يجمع المعلومات والنوادر قبل أن يسافر إلى هذه القارات . فإذا سافر أضاف إلى المعلومات تجاربه الشخصية . فكأنه لم يكن مؤلفا واحدا ، إنما هو مؤسسة يشترك فى تأليف كتبه أناس كثيرون . فى حين أنه هو الذى ذهب ورأى وسجل ووقع باسمه فى النهاية .. إنه ماركة مسجلة مشهورة . ومن الممكن أن يضع هذه الماركة على أى كتاب ، وهو ضامن تماما أن يكسب من ورائه ملايين الدولارات .. وعرفت بعد ذلك كاتباً آخر هو جيمس متشنر. إنه ليس أديب رحلات فقط ، إنما هو روائى ومؤلف أفلام سينمائية . .

ولم يعجبنى فى ذلك الوقت ما كتبه د . محمد حسين هيكل عن ذكرياته فى السودان .. فقد كان جافا خشنا . ولا أعجبنى كتاب : الإنجليز فى بلادهم ، للدكتور حافظ عفيفى ، فقد أحسست أنه يتحدث إلى أناس آخرين .. بينما أعجبنى كتاب « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » لرفاعة الطهطاوى .. لقد كانت دهشته لا حدود لها ، ولكنه لم ينس مصر ، بل تمنى أن ينقل إليها كل شىء عجيب رآه فى فرنسا .. ابتداء من عربات الرش فى الشوارع والأكل بالشوكة والسكينة والملعقة وإلى أن يأكل كل إنسان من طبق واحد ، حتى الدستور الفرنسى الذى ترجم الكثير من مواده .. ..

ولا هزنى كتاب المويلحى « حديث عيسى بن هشام » عن ذلك الرجل الذى مات ثم صحا ليرى الدنيا قد تغيرت .. تماما كأنه صورة حديثة لأهل الكهف الذين ناموا مائتى سنة ، وخرجوا من كهفهم ليذهلوا الناس بأنهم ناموا ولم يموتوا .. أو كأنه « لعازر » الذى أحياه المسيح بإذن الله ..

وفى المكتبات وجدت كتاب « ألف ليلة وليلة » ولم أصبر طويلا على قراءتها .. وإن كنت قد عدت إليها بعد ذلك .. هل لأن لغتها العربية ركيكة ؟ هل لأنها لا تشبعنى معانيها ؟ .. هل لأنها لا تحدثنى باللغة التى اعتدت عليها ؟ .. هل هو عيب فيها ، أو العيب فى أنا ؟ لم أناقش هذه القضية مع نفسى أو مع أى حد .. إنها لم تعجبنى ..

أما الذى ردنى إلى « ألف ليلة وليلة » فهو د . حسين فوزى .. فهو إسكندرانى عاشق للبحر . وهو عالم وأديب أحب السندباد البحرى .. ولذلك عاد إلى قراءة ألف ليلة وليلة ، باحثاً أثريا جغرافيا وعالما بالأحياء المائية .. ووجدت أحاديثه عن السندباد الحديث والقديم دعوة حارة إلى الحياة مع السندباد البرى والبحرى ومع شهريار وشهرزاد والحيوانات الخرافية من كل لون وحجم ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى الرغم من أن د . حسين فوزى كان عاشقا ولهان ، فإن العالم الكبير لم يسحق قلبه بعقله .. إنما كان هو العالم ذا القلب الرقيق .. أو هو العالم الشاعر الواقعى والرومانسى أيضا ..

لقد أعطانى د . حسين فوزى عددا كبيرا من مفاتيح المعرفة التاريخية والفنية والموسيقية .. أعطانى قلبا جديدا ، أحب به شيئا جديدا .

ومن حين إلى حين يظهر حولى اسم د . محمد مندور .. وفى مقال نشرته مجلة « الرسالة » يقول : إن الإنسان لا يبحث عن الأشياء حيث يجب أن يجدها ، ولكن يبحث عنها حيث يمكنه ذلك ، حتى لو لم يكن هناك أمل فى أن يجدها ..

وحكى أنه كان فى أحد كباريهات باريس ، فظهر على المسرح رجل مخمور يبحث عن مفتاح بيته .. واقترب منه أحد رجال الشرطة ليسأله : عن أى شىء تبحث ؟ فقال : عن المفتاح . وسأله الشرطى : وهل سقط منك هنا ؟ فقال : بل فى أول الشارع . واندهش الشرطى وسأله : ولماذا تبحث عنه هنا ؟ فقال الرجل المخمور : لأن المكان هنا مضاء ! ..

وفى الأسبوع التالى جاء رد الأستاذ العقاد : ان هذه النكتة التى رآها الدكتور فى باريس . قد ألفها السيد جحا التركى دون أن يكون فى حاجة إلى أن يذهب إلى باريس ... فالنكتة قديمة ! ..

ثم أشار الأستاذ إلى مصادر النكتة .. ولا أعرف ما الذى كان قد كتبه د . مندور . ليرد عليه الأستاذ فى مقال آخر : حتى هذه قديمة يا مولانا .. إنها موجودة فى التوراة . ويكفى أن تقرأ « نشيد الإنشاد » لتجد أن فتاة ترعى الغنم قد رفضت التاج والعرش ، لأنها تفضل راعيا اختارها فاختارته . أما سليمان فقد كرهته الفتاة لأنه اختارها ، ولكنها لم تختره . حتى قصتك هذه التى ذكرتها قديمة ! ..

والذى أثارنى فى ذلك الوقت أن هناك معارك كلامية وتاريخية ومنطقية .. وأن هناك بطولات ، لم ينفرد بها الأستاذ العقاد .. إنما ينازعه عليها كثيرون .. وأن هناك كتابا آخرين يجدون ما يقولون ، ويحسنون ذلك تماما . وأن هناك ثقافة إنجليزية وثقافة فرنسية ..

وأهم من ذلك أننى لم أكن أعرف « نشيد الإنشاد » هذا .. وعلى الرغم من حرصى على أن أعرف ، فقد وجدت نوعا من الخجل فى أن أسأل .. كأنه مفروض أننى أعرف كل شىء .. أو كأننى عندما قرأت كل الكتب الأدبية فى المكتبة العامة بالمنصورة ، فقد أتيت على كل ما فى الدنيا من كتب ..

ولم أجد إلا زوجة صاحب البيت ، وهى سيدة يهودية ، ولم أكد أسألها حتى اختفت لتعود بكتاب كبير جلدته سوداء وأطراف أوراقه حمراء .. وفيه شريط أخضر ليفصل بين الصفحات .. ثم أشارت إلى مكان « نشيد الإنشاد » من هذا الكتاب المقدس الذى رأيته لأول مرة .. لقد صدمتنى لغة الكتاب المقدس ، إنها ركيكة . وتراكيبها عجيبة غريبة . ولم أقلب فى الكتاب كثيرا . إنما بحثت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن نشيد الإنشاد وقرأته مرة ومرة .. ان هذا النشيد على لسان فتاة تحب راعيا وتتغنى فى عينيه وشعره وطعمه وحلاوته .. وتقول إنه جميعا « مشهيات » .. وتطلب إلى بنات أورشليم ألا يوقظن الحبيب النائم .. وتقول إنها نائمة ولكن قلبها لا ينام .. وهى تطلب إلى بنات أورشليم أن يعذرنها فهى مريضة حبا .. وتطلب إلى حبيبها أن يجعلها خاتما على صدره .. على ذراعه حتى لا تفترق عنه .. وتقول له : إن الحب كالموت .. أى يفنى الإنسان فى الذى يحبه .. أو أن الحب هو نهاية كل حى ، تماما كالموت ..

ثم تصف شفتيه وطعم ريقه ، وصدره وبطنه ونهديها ، وكيف برح بها الحب .. أما مؤلف هذه الأناشيد فهو الملك سليمان الذى يملك مئات الزوجات . وأراد أن يضم إليهن هذه الفتاة بالقوة ، ولكن الفتاة رفضت الملك ، وراحت تبكى على الحب .. ربما أعطته جسدها ، ولكن قلبها ظل حزينا على راعى الغنم . هذه الفتاة اسمها شولاميت ..

هل الذى أعجبنى فى هذه الأغنيات التى كان يرددها اليهود فى أفراحهم ، أن فتاة رفضت ملكا ؟ أن فتاة تمردت على عرش .. وأن الملك مهما كان قويا فإن قوته تقف عند إرادة إنسان عنيد .. فلا الملك قوى جدا ، ولا الإنسان العادى ضعيف جدا ؟ .. أهى أول امرأة فى التاريخ رفضت سلطانا إلا سلطان الحب ، ورفضت عرشا إلا عرش القلب ؟

هل شولاميت هذه هى التى جعلتنى بعد ذلك أتوقف طويلا عند رواية « مدام بوفارى » للكاتب الفرنسى جوستاف فلوبير .. لأن البطلة قد رفضت أن تكون لها حياة ككل الناس ، فتعذبت وانتحرت ؟ ..

هل هذا الرفض هو الذى جعلنى أهتز طويلا جدا عندما شاهدت فيلم « غراميات كارمن » ؟ وكان أول فيلم رأيته فى حياتى بعد أن تخرجت فى الجامعة . وقد ظللت أكتب عنه كثيرا جدا ، حتى نبهنى أحد الأصدقاء إلى أن هناك أفلاما أخرى كثيرة .. وكنت قد تصورت أنه الفيلم الذى لا فيلم بعده ولا قبله .. لأن المعانى التى أثارها فى نفسى ، قد كانت نائمة .. أو كانت مجهولة الملامح ، فجاء هذا الفيلم وأثارنى بعضى على بعضى .. فعرفت ماذا يدور فى أعماقى .. إن الفيلم مأخوذ عن قصة للأديب الفرنسى بروبسر مريميه .. بطلة الفيلم ريتا هيوارث وبطله جلين فورد .. والبطلة غجرية تعيش على هواها . وتلعب بالرجال .. ولا يهمها إلا أن تكون كما تريد هى ، لا كما يريدون هم .. فهى نموذج لامرأة رفضت كل الناس ، لأن الناس رفضوها ، فهى غجرية .. تعيش على حافة المدن . وعلى حافة القانون أيضًا ..

أما هو فشاب من أسرة كبيرة ، وله مستقبل .. عرفها . أحبها . ارتبط بها . فعاش حياتها .. قاطع طريق .. غجريا ولكنه لم يجدها . فهى لا ترتبط برجل . ورغم أنه قد ضحى لها ، فإنها لا ترى هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التضحية شيئا كبيرا . وبعد صراع مرير مع زوجها ، قتل زوجها ، ولكنه عرف بعد ذلك أن هذه الجريمة لا مبرر لها ، فقد كان من الممكن أن يشتريها من الزوج . فنساء الغجر للبيع . وأيقن أيضا أن حياته هذه لا ضرورة لها .. ثم إنه اكتشف أنه يعيش حياة لا يرضاها . حياة مظلمة . فهو ليس كما يراه الناس قاتلا غجريا . وصرخ يقول : : اللعنة على كل من يقول : إن الإنسان كما يعمل . فأنا أعمل ما لست أحب . وأعيش على غير ما أهوى .. إننى أحسد هذه الغجرية التى تعيش كما تحب وكما تريد . وإنها فى سبيل ذلك تدوس كل الرقاب وكل القلوب ! ..

وبعد هذا الفيلم كتبت كثيرا عن أبناء الغجر ، ورأيت أننى مثل واحد منهم ، فأنا أعيش وحدى بعيدا . وأتمنى أن أظل كذلك ، فلا يكون الناس عبئا على مشاعرى ، ولا تكون العلاقات قيودا على فكرى . وأن المفكرين والعلماء والفنانين وآلهة الإغريق مثل هؤلاء الغجر .. يعيشون بعيدا عن الناس .. إنهم طبقة مختلفة .. فئة من نوع خاص .. إن هؤلاء الغجر نموذج رائع لذلك المعنى الذى استولى على خيالى دون وعى منى : اللامنتمى .. ألا يكون الإنسان واحدا من كثيرين .. أو عضوا فى جماعة .. أو فى حزب ، أو مرتبطا بمذهب .. إنما أن يكون هكذا على حريته .. وليكن ما يكون !..

ومن الغريب أن أجدنى فى إيطاليا فى سنة ١٩٥٢ وأقرأ فى الصحف أن « ميمى » ملكة الغجر قد ماتت..وأن جنازتها سوف تشيع فى مدينة « بورتو فينو » على ساحل الريفيرا الإيطالية ..

وأعتقد أن ما حدث بعد ذلك كان من غير تفكير واضح .. فقد ركبت القطار إلى حيث ماتت ملكة الغجر . وكان ذلك قبل الجنازة بيوم . وسألت عن بيت جلالتها . وهناك وجدت أناسا ذوى شعور وعيون سوداء أيضا . إنهم ليسوا كالغجر المصريين .. إنهم غجر أوروبيون .. ملامحهم إسبانية أو مثل ملامح أبناء أوروبا الشرقية التى هى خليط من السلاف واللاتين .. ووجدت طابوار طويلا . وقفت فى نهايته وتحرك الطابور إلى داخل البيت وتحركت لألقى النظرة الأخيرة على جلالة الملكة ميمى اربيناس السابعة عشرة . ولاحظت أن كثيرين ينظرون ناحيتى . وأدركت أن السبب هو أنهم جميعا قد ارتدوا الملابس السوداء والكرافتات السوداء وفى يد كل منهم وردة . أما أنا فقد كانت ملابسى فاتحة وقميصى أبيض وبلا كرافتة ، وبلا وردة . ولكن كانت علامات الدهشة واصطناع الحزن واضحة على وجهى . ووجدت جوابا أرد به على من يسألنى : ومن أى البلاد أنت ؟ فأقول من مصر : ولم أسمع بهذا النبأ إلا منذ ساعات . ولذلك لم أتمكن من ارتداء الملابس السوداء ..

ومددت يدى إلى الأرض والتقطت وردة ، ووضعتها على صدر جلالتها .. وخرجت إلى الشارع أتفرج على الطابور الغجرى الذى يضاف إليه أناس كثيرون . ثم جاء دور الجنازة . وحملوا جثمانها على سيارة . ومضت السيارات تتبعها . ووجدتنى جالسا فى إحدى السيارات ، ولم يسألنى أحد من أى البلاد ، ولكنى تطوعت فقلت . وكان قبرها فى أطراف المدينة . ولم أعرف إن كانت الصلاة عليها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسيحية أو يهودية أو وثنية .. ولكنها مختلفة تماما عما توقعت . فقد ارتفعت الحناجر بالبكاء والدعاء معا . ووقف رجل يعزف على قيثارة تتمزق نواحا والجميع قد نكسوا رءوسهم . أما النساء فكن يولولن على فقدها ..

ولابد أن ميمى هذه كانت جميلة ، فملامحها رغم تجاعيد الزمن متناسقة وبشرتها رغم صفرة الموت ماتزال متوردة .

ويقال إنها كانت أحسن راقصة فى شبابها .. وإنها كانت مثل ملكة النحل ، قد تقاتل عليها الذكور فقضت عليهم جميعا ، فلم يبق إلا زوجها الشاب الذى يصغرها بثلاثين عاما ، رأيته ووجدت أنه لم يضيع وقته فى الحزن عليها ، فقد كان يعتمد على فتاة غجرية جميلة . لعلها كانت عشيقته والملكة ماتزال على فراش المرض . أو لعلها الملكة الجديدة ..

ثم كتبت كثيرا عن « الغجر » فى كل مكان .. وعن أننى واحد من هؤلاء ، وأننى لست وحدى . وإنما نحن كثيرون . وصدر لى كتاب بعنوان « نحن أولاد الغجر » ..

هل هذا العطف على الغجر هو الذى جعلنى أقدم مسرحية « المومس الفاضلة » .. للفيلسوف الوجودى سارتر ؟ .. إن هذه المسرحية ومسرحيات وروايات أخرى لسارتر تتحدث عن « بنات الهوى » وعن « الزنوج » — أى عن الأقلية المنبوذة .. فتيات الهوى منبوذات ، رغم أن الجنس ضرورة حيوية .. ولكن الناس ينشدون الجنس ، ويرفضون احترام اللاتى قدمنه لهم .. والناس يتحدثون عن المساواة ، ولكنهم يرفضون الزنوج ، الذين هم سجناء اللون ، الذى فرض عليهم .. فهو سجن أبدى .. وفى الأدب العالمى كله عطف على الغانيات وبنات الهوى .. وإحساس بأن هذا الطراز من النساء هو جناية اجتماعية ، أو هو ثمرة جريمة .. أى أنهن جميعا ضحايا . ولأن هذا النوع من الرجال والنساء لا أمل عندهم فى الخلاص ، ولا أمل فى أن يحترمهم الآخرون ، فهم لذلك ليسوا مقيدين بشىء .. إن الطبقة لا تقيدهم ، والفضيلة لا تقيدهم ، والعلاقات الاجتماعية لا تقيدهم .. ولذلك فهم أحرار تماما .. يضعون القواعد والأصول والمبادئ التى تعجبهم .. وليست التى يفرضها عليهم الناس .. وهم يتوهمون — عادة — أنهم الذين رفضوا الناس ، وليس الناس هم الذين رفضوهم .. وأنهم يحتقرون الناس ، وليس الناس يحتقرونهم .. وأنهم اختاروا الحياة على الهوامش ، وليس المجتمع هو الذى رماهم ، كما يرمى البحر الجثث الميتة على الشواطئ .. إنهم جميعا أضعف من الأغلبية ، أصغر من المجتمع ، إنهم مطحونون مسحوقون .. إنهم ضحايا بلا جريمة ، وسجناء بلا حيثيات حكم .. إلا أنهم ضعفاء ، ويرفضون ذلك .. أما ثمن الرفض فيدفعونه فى حياة بعيدة عن الناس ، كما يعيش الغجر فى الكهوف ، وكما تعيش الغانيات فى المواخير ، وكما يعيش العلماء فى المعامل ، والرهبان فى الصوامع ، والمفكرون فى الأبراج العاجية ، وآلهة الإغريق على جبل أوليمبيا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وربما سبب آخر أعمق من ذلك كله : البطل .. هذا المعنى الذى ترسب فى أعماقى مما كتبه الأستاذ العقاد .. إنه ، وإننى ، تلك الأقلية المحكوم عليها بأن تكون أطول قامة ، والناس أقزام . وأن تكون أقوى بصيرة ، والناس عميان .. فإما أن يكون الإنسان ممتازا بطلا معتزلاً للناس ، وإما لابد أن يعتزل ليكون شيئا ممتازا ..

ويقول الأستاذ : ما من صاحب رسالة ، إلاوجد نفسه مضطراً ان يحملها ثقيلة على قلبه وعقله ، ثم انفرد بها بعيدا يتهيأ لها قبل أن يلقى الناس ..

فكان للرسول عليه السلام : غار حراء .

إذن فليس عيبا أن يكون الإنسان بعيدا وحيدا وأن ينكر الناس ذلك .. أو لا يعجبهم ذلك . أو يتألمون ويتقولون . فالتاريخ – كما يقول الأستاذ – لا يعرف الكثير عن الذين أكلوا وشبعوا . ولكن يعرف الكثير عن الذين جاعوا وثاروا ، وصاموا وزهدوا ، من أجل أن يوفروا للأغلبية الهائلة سبيل الهداية إلى الطعام المادى والعقلى ..

فليس عجيبا أن تهزنى فتاة غجرية فى أول فيلم رأيته فى حياتى ، وأن يظل اهتزازى عشرات السنين بعد ذلك .

فلا يضيع صدى أى صوت قد مزق آذان الطفولة !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بَل هُوَ عَدوّ المَرْأة !

لا أعتقد أنى من الذين أحبوا طه حسين ، أنا معجب به فقط . حتى بعد أن عرفته شخصيا ، وبعد أن أثنى علىّ ثناء عظيما فى التليفزيون ، وكتب مقدمة رائعة لكتابى « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » . فالرجل شخصية عظيمة ، وعقلية مثيرة ثورية . ولكنى لم أستطع أن أتخذه أبا أو أخا أو أستاذا أو هاديا . ولا عيب فيه . إنما اهتمامى يختلف عن اهتمامه . وأسلوبى فى فهم الأشياء والتعبير عنها مختلف . فأنا أقرب إلى المشتغلين بالفلسفة الأوروبية . وعلى الرغم من أنه أحد رواد الفكر الأوروبى ، وأن العقاد كذلك ، فإننى وجدت طريقى بعيدا عنهما . وإن لم أرفع عينى عن العقاد ، ولم أسد أذنى عن طه حسين . .

ولكنى فزعت عندما وجدت طه حسين فى تعليق على كتاب « المطالعات » للعقاد يقول : لا أعرف العقاد . ولا أذكر أننى عرفته . أو استمعت إليه !

أى أن من الممكن أن يكون قد التقى به . . ولكنه نسى ذلك . . كأن لقاء العقاد يمكن نسيانه !

وقال : إنه يحتقر مذهب العقاد السياسى ، ويحتقر أنصاره ، ويحتقر الصحيفة التى يكتب فيها ، ثم إنه لا يقرأ ما يكتبه العقاد فى السياسة .

وأنا أعطيه بعض الحق فى هذا كله . . ولكن لا أعرف إن كان هذا نقدا وهل من النقد أن يرفض الإنسان كل شىء فى مقال واحد دون أسباب واضحة ؟

وقال طه حسين : إن مقدمة الكتاب غامضة تماما . وإن العقاد لو قرأ هذه المقدمة فإنه لن يفهمها .

وذهب طه حسين فى السخرية من العقاد إلى أبعد من ذلك ، عندما تساءل : إن كان العقاد قد تعلم اللغة الألمانية ؟ لأن اللغة الألمانية صعبة ، ولابد أنها تركت أثرها فى لغته . فلغة العقاد غامضة مثل اللغة الألمانية .

وقال طه حسين : إنه قرأ لعدد من الفلاسفة الألمان فلم يفهم منهم شيئا . وإن كان قرأ بعض شعرائهم مثل جيته وشيلر وهينه ، فأعجب بهم جميعا .

وطبيعى أن يكون طه حسين ابن الأدب الفرنسى متحمسا لأدباء وفلاسفة فرنسا ، وأن تكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبارته سهلة وجميلة . وأن يكون الوضوح هو مثله الأعلى .

واقترب طه حسين – وأنا مذهول جدا وكتاب « حديث الأربعاء » يرتجف فى يدى – من العقاد وقال : إن الإنسان يكون غامض العبارة إما لأنه جاهل وإما لأنه عالم جدا كالعقاد ، ولكن لغته لا تسعفه . . إلخ .

صحيح أنه قال : إن الأستاذ العقاد عالم جليل ، ومفكر كبير ، وإن شهرته فى ذلك الوقت أى فى العشرينات ، قد وسعت العالم العربى – ولعله يسخر من العقاد الذى يرد على رسائل القراء من جميع البلاد العربية .

ولا أعرف ماذا كان رد العقاد على طه حسين ! ويبدو أن هذا رأى طه حسين حتى الموت ، أى حتى موت العقاد وموته هو أيضا . ففى البرنامج التليفزيونى الذى أعددته لطه حسين ، وعدد من الأدباء المصريين فى الستينات قال لى : لم أفهم عبقرية عمر ، وقال لى : إن حفيدى حائر فى فهم عبقرية عمر المقررة عليه .

ثم اقترح علىّ أن أعلن عن جائزة مالية لمن يفهم هذا الكتاب . . ولم يعجبه كتاب العقاد عن « أبى نواس » فهو لا يحب التفسير النفسى أو التحليل النفسى أسلوبا لفهم الأدباء والشعراء . ويرى أن هناك تفسيرات أخرى أدبية وبلاغية وتاريخية . .

واختلفت مع طه حسين ، وهاجمته ، وتجاوزت حدود الأدب اللائق بشخصه الكبير ، دفاعا عن العقاد الذى كان قد توفى قبل هذه المعركة بوقت قصير !

إذن فطه حسين يحتقر المذهب السياسى للعقاد ، وأسلوبه ، والمكان الذى يكتب فيه ، ولا يجد نفسه مضطرا إلى قراءته . . حتى كتاب « المطالعات » لم يقرأه كله .

وذاكرة طه حسين لا تسعفه إن كان قد التقى بالعقاد . ثم إنه يضع الأستاذ سلامة موسى قبله فى الترتيب . وهو لا يذكر إن كان قد التقى بالأستاذ سلامة موسى أيضا ؟ !

وقرأت مقالا لطه حسين هاجم فيه بمنتهى العنف الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، وقال إنه هو أيضا أشد غموضا من العقاد . وإذا كان لهذا الرجل فضل ، فهو أنه أكثر الناس علما باللغة العربية . أما أسلوبه فلا يستطيع أن يفهمه . وطه حسين له عذر فى ألا يفهم مصطفى صادق الرافعى والشاعر محمود حسن إسماعيل . لأن كليهما يعتمد على الصور . . على الضوء واللون والظل وخلطها جميعا وخلق صورة عجيبة غريبة . . ربما سيريالية . . أو انطباعية . ومن الصعب على طه حسين أن يرى ذلك . .

وقرأت مقدمة كتاب « المطالعات » للأستاذ العقاد مرة ومرتين ، ولم أجد أنها غامضة إلى هذه الدرجة . ولم أجد أن صاحبها يستحق كل هذا الاحتقار والازدراء . ولكن يجب أن أذكر فضلا لطه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حسين . فهو ابن المدرسة الفرنسية ، وهو ابن أعرق التقاليد الفكرية : فى أن يتخذ الشك طريقا إلى اليقين . ولابد أن يقترب الكاتب من أى موضوع دون خوف . وأن يتجرد من كل فكرة سابقة . وأن يبحث بنفسه . وأن يخرج بالمعنى الذى يريحه ، والذى يقدر على إقناع الآخرين به . . ثم إن طه حسين حر ويريدك أن تكون حرا ، ولا يهمك كثيرا ما يراه الناس ، فهو وجد العقاد غامضا ، فهو إذن غامض ، ولو قال كل الناس إنه كالشمس وضوحا وحرارة وعلوا . ثم إن طه حسين حر فى أن ينكر الشمس ، مادام لا يراها . إن حرية طه حسين أقرب إلى العبث – أى إلى أن تكون بلا معنى ، إنما هى متعة ممارسة كلمة : لا . . وقد قال : لا . . لأشياء كثيرة تقليدية فى الأدب وفى التاريخ وفى السياسة . .

وإذا كان أسلوب العقاد غامضا أحيانا ويحتاج إلى إيضاح ، فإن أسلوب طه حسين متكرر الألفاظ والمعانى وفى حاجة إلى اختصار . . فالذى يضاف إلى عبارات العقاد يجب خصمه من عبارات طه حسين . فأحدهما موجز أكثر مما يجب ، والآخر يستطرد أكثر مما ينبغى .

ولكن فى ذلك الوقت – فى الأربعينات وأنا طالب فى الجامعة – لم أكن أجد لطه حسين هذه العظمة الفكرية . فكل الذى كتبه عن الفلسفة الإغريقية والأدب الإغريقى لم يثرنى ولم يبهرنى ، ولا أذكره الآن . . فقد ذهبت إلى أبعد مما ذهب فى الفلسفة الإغريقية والإسلامية والأوروبية . أما هو فقد مر بها وتوقف بعض الوقت ، ومضى إلى أشياء أخرى . . إنه ترك بصماته وقال كلمته ومضى . .

ولكن جرأة طه حسين أعجبتنى . .

ومن الصعب عند قراءة طه حسين ألا يتذكر القارئ والباحث أشياء كثيرة : أن الرجل أعمى ، وأنه أزهرى . وأنه سافر إلى فرنسا . وتعلم اللغات الفرنسية واليونانية واللاتينية . وأنه تعمق الأدب والفلسفة ، والقرآن . وأنه صدم رجال الدين ، وإن لم يصدم رجال الحكم . .

وأنه كان سياسيا فى الجامعة . وكان جامعيا فى السياسة ، وأنه كان يريد السلطة أى السطوة والقوة والحيرة بين المنصب والمال . .

وذهبت إلى إحدى محاضراته فوجدته يتكلم كما يكتب . فأسلوبه غنائى . وهو واحد من الذين يحببون إليك لغتك العربية . فهو ليس متحدثا ولكنه مطرب عاشق ولهان . ومحبوبته هى الكلمات . حتى عندما يتكلم بالفرنسية فهو عاشق أيضا . إنه واحد من دراويش البلاغة . .

وفى ذلك الوقت زار كلية الآداب كاتب فرنسا الكبير أندريه جيد . الفائز بجائزة نوبل فى الأدب . وجاء طه حسين وقدمه لنا فى المدرج ٧٨ . . وأندريه جيد قصير القامة نحيف جدا . وكانت قد ظهرت ترجمة لرواياته : « الأغذية الأرضية » و « الباب الضيق » و « السمفونية الريفية » . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتحدث أندريه جيد وصفقنا له . ولا أذكر من الذى قاله شيئاً كثيراً . ولكن د . عبد الرحمن بدوى هو الذى نبهنا إلى خبث طه حسين وجرأته فى نفس الوقت ، فقد قال طه حسين : إن أندريه جيد يحب الشباب ، ويحب أن يتحدث إلى الشباب ، ثم إنه كان وسوف يبقى شابا !

أما المعنى الخبيث الذى أشار إليه طه حسين فهو حب أندريه جيد للشباب – لأن أندريه جيد عنده شذوذ جنسى ! .

ولم أدرك فى ذلك الوقت ما هى علاقة هذا الشذوذ الجنسى الذى لا أعرفه ، بالذى قاله أو كتبه . .

ولكن فى صالون العقاد أصبحت أشياء كثيرة أوضح . قال الأستاذ : إن الشيخ طه يا مولانا ، رجل خبيث . . وهو رجل حاقد على كل إنسان . وهو ليس غريبا بين كل أصحاب العاهات . . ومن الغريب أنه يسرف فى استخدام كلمة : رأيت . . وشاهدت . . بل إنه يذهب يا مولانا لافتتاح معارض اللوحات والتماثيل . . هل هناك شىء أعجب من ذلك ؟ !

وقال الأستاذ : وما الذى يضايق الشيخ طه فى شذوذ الفرنسيين ؟ ! . . أليس « يرى » فيهم المثل الأعلى للفكر والسلوك ؟ ! أليس « يرى » أو يلمس أنهم سادة الفكر وأنه سفيرهم هنا فى مصر ؟ ! ثم إن الفرنسيين يتباهون بهذا الشذوذ الجنسى . . أندريه جيد كان قد ذهب إلى الاتحاد السوفيتى وضبطوه وفضحوه ، ولذلك هاجم الشيوعية وهاجمه الشيوعيون . .

واستعرض الأستاذ الشذوذ الجنسى عند كثيرين من الأدباء : أبى نواس وأوسكار وايلد وشيكسبير وسقراط والرسام ميكلونجلو . . ثم انتقل إلى الأدباء المصريين المعاصرين والمطربين والمطربات والوزراء وكبار الساسة ورؤساء الوزارات . .

وكأن الأستاذ عندما لاحظ ذهولنا ، لأننا صغار ، اتجه إلى شىء آخر فكأنه ضرب أدمغتنا فى الحائط لكى نفيق ، فقال : إن الشذوذ الجنسى قد أشار إليه القرآن الكريم . . قوم لوط . . وأشار إلى أن التوراة قد امتلأت بكل صور الشذوذ . . فالأب ينام مع إحدى بناته . . وهناك من يبيع ابنته . .

ثم قال الأستاذ : إن أمام القضاء الأمريكى رواية « عشيق الليدى تشاترلى » للكاتب الإنجليزى د . هـ . لورانس . وهو الآخر شاذ جنسيا ، بشهادة زوجته الألمانية يا مولانا . . عندك خبر ؟

وبعض الحاضرين قالوا إنهم يعرفون ذلك . .

وقال الأستاذ : وهناك لورانس آخر اسمه لورانس العرب ، أكثر شذوذا من لورانس الأدب . . عندك خبر يا مولانا ؟

ولم يكن عندى خبر . .

وعاد يقول : إن عشيق الليدى تشاترلى قصة جنسية فاضحة . وقد رفضت الرقابة الأمريكية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نشرها . . تماما كما رفضت نشر رواية « لوليتا » للكاتب الروسى الأصل نابوكوف . . وكانت حجة الرقابة أن هذه القصة تفسد الأخلاقيات العامة . ولكن المحامى ساق حجة قوية لم تستطع المحكمة أن تناقشه فيها ، قال : أنا أحتكم إلى الكتاب المقدس . . ففى هذا الكتاب قصص فاضحة ومخجلة ومهينة للإنسان . . فكيف تضعون مثل هذا الكتاب فى أيدى الأطفال والفتيات ، بينما رواية الليدى تشاترلى ، ليست كتابا مقدسا ، ولا يمكن أن تكون منتشرة مثل الكتاب المقدس . . فإما أن تفرجوا عن هذه الرواية ، وإما أن تصادروا الكتاب المقدس ، وأفرجت المحكمة عن الرواية !

وكان لابد للأستاذ أن يذهب فى النقد إلى أن يجد شيئا يبعث على الضحك . . فقال : رويت لكم كثيرا حكاية الفيلسوف الفرنسى روسو . الذى ادعى أنه أرسل أولاده إلى بيوت اللقطاء ، وكان كاذبا . فقد كان عاجزا جنسيا . وفى الكتاب المقدس قصص أعجب وأغرب . . هناك حكاية شيشم الذى اعتدى على دينا ابنة يعقوب . . ثم ذهب يطلب أن يتزوج منها ، تكفيرا عن هذه الغلطة . فوافق الأب . ولكن بشرط أن تجرى عملية طهارة له ولجميع أفراد قبيلته ، ووافق شيشم على ذلك . . وأجريت عملية الطهارة لكل الرجال ، وبينما الرجال جالسون فى بيوتهم وعاجزون عن الحركة هاجمهم أهل دينا وقتلوهم جميعا . . ها . . ها . .

ثم يقول : أكثر من ذلك يا مولانا . . أن نجد فى سفر « الخروج » تحذيرا لكل رجل وكل امرأة تعاشر حمارا أو حصانا أو كلبا . . أما العقاب فهو قتل الرجل والمرأة والحيوان . . فما ذنب الحيوان ؟ ! هاها . . هاها . .

ثم حكى لنا الأستاذ أن أديبا معاصرا إذا بعث إلى إحدى الصحف بصورته كتب عليها : هذه الصورة أعطيت لفلان بناء على طلبه .

ولم يتركنا الأستاذ نستوضح ذلك ، فمضى يقول : لأنه يخشى أن يتوهم أحد أنه هو الذى أعطى الصورة لأحد من تلقاء نفسه . .

ولما لاحظ الأستاذ أننا لم نفهم قال : إنه مثل أندريه جيد يحب الشبان أيضا ! !

ثم روى قصة وزير خارجية مصرى رأى شابا وسيما ، فطلب إليه أن يعمل عنده سكرتيرا . ووسط الأستاذ كامل الشناوى . وتآمر الأستاذ كامل الشناوى وحفنى باشا محمود على هذا الوزير . وأقنعوه بأن هذا الشاب الوسيم قد أسعده أن يقع عليه هذا الاختيار ، وأنه سوف يذهب إلى المكتب غدا . .

وفى اليوم التالى دق وزير الخارجية الجرس ، فجاء شخص لا يعرفه . ثم دق جرسا آخر فجاء شخص ثان . وجرسا ثالثا فأتى شخص يعرفه . . فسأل : وأين السكرتير الجديد ؟ . . ففوجئ بشخص قبيح دميم الوجه قصير القامة غليظ المنظار . سأله : من الذى أتى بك ؟ فأجاب : سعادة حفنى باشا محمود !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأدرك الوزير المقلب !

ولم يكتف الأستاذ بذلك فقال : إن أم كلثوم تقول عن نفسها إننى أكثر رجولة من المطرب فلان . . وقالت : إننى أتحداه أن يخلع ملابسه أمامى !

ولا أظن أننى كنت أضحك عندما يذهب الأستاذ من نكتة أدبية إلى نكتة جنسية ثم إلى نكتة عارية . . ولكنه يحب ذلك لأنه شخصية مرحة . ولأن النكت التاريخية منعشة ولأنها تغير ملامح الوجوه التى جلست فى صمت أمامه : تسمع ولا تتكلم . تهتز ولا تغير مكانها . وإذا جاءت القهوة أو الليمون ، فإن عددا قليلا منا يمد يده ليشرب . . فنحن نجد المتعة كلها فى أن نستمع ونعود إلى بيوتنا نستعيد ما سمعناه . أو نسجله ، وقد فعلت ذلك بعض الوقت !

وظهرت سيدة فى صالون العقاد . جلست إلى جوارنا . متوسطة القامة ، سمراء . حلوة الملامح ، ولكنها قرأت أكثر مما قرأنا . ثم إنها تقول كلاما كبيرا – أى أن كلامها أكبر منا ، أو أبعد من منالنا وأعمق من إدراكنا . تقول : كنت فى لندن . . وقابلت ت . س . اليوت . وقلت له : إن فى مصر كاتبا لو ترجمت أعماله إلى اللغة الإنجليزية لكان إلى جوار كارليل وهازليت . . ولو ترجم شعره لجلس على يمين شيكسبير . .

ولا تترك الأستاذ يسعد بذلك فتقول بسرعة : ولما قابلت طه حسين منذ أيام على عشاء مع لطفى السيد باشا تضايق تماما من كل كلمة قلتها . . وقال لى مستنكرا : وما الذى يمكن أن يترجم من العقاد إلى أية لغة ؟ إننى لا أجد له شيئا يستحق الترجمة !

لو أسعفتنى ذاكرتى الآن لوصفت وجه الأستاذ يتنقل بين ألوان علامات المرور : الأحمر والأصفر والأخضر . . لقد أسعده ما قالته هذه السيدة ، وضايقه ما قاله طه حسين ، وكان مثل هذا الكلام سببا كافيا للهجوم على طه حسين وعلى المشايخ وعلى خبث طه حسين وحقده . . وتحدث الأستاذ عن كتاب « الأيام » وعن « حديث الأربعاء » وعن « الشعر الجاهلى » وعن « أديب » و « من بعيد » وكلها كتب لطه حسين . . ولم يجد الأستاذ فى واحد منها « شيئا » يستحق عليه طه حسين أن يكون أديبا .

ويرى الأستاذ : أن طه حسين يعجب به الناس من باب الشفقة عليه ؟! فهم يستكثرون على شيخ أزهرى أعمى أن يكون عميدا . فإذا أصبح عميدا فهو إحدى المعجزات . ولو صح أن المرض مؤهل ، لكان أكثر الناس استحقاقا لعمادة الأدب وإدارة الجامعات : نزلاء مستشفى الأمراض العقلية !

وقال الأستاذ : إننا نعجب للطفل الصغير إذا نطق اسم والده . . فإذا نطق اسم والده قلنا له : اشتم أباك والعن أمك . . فإذا فعل حملنا الطفل إلى كل بيت ليشاركونا الضحك والتعجب لهذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعجزة الصغيرة . . ونحن نرى ذلك شيئا عجيبا لأننا نستكثر على الطفل أن يفعل ذلك . . ونحن أيضا نستكثر على الشيخ طه أن يتحدث فى الأدب الفرنسى والإغريقى واللاتينى . . ولذلك أعطيناه ما أعطينا الأطفال الصغار . وقلنا إنه معجزة . . فلو حدثت معجزة أخرى ووجد الشيخ طه نفسه مبصرا ، ألا يؤدى ذلك إلى فصله من الجامعة ؟ . . ها . ها . ها .

وأتذكر للأستاذ عبارات عنيفة فى ذلك الوقت . كان يقولها ، ولا أعرف معناها تماما . يقول : لو أن إلها إغريقيا نازعنى فى ذلك ، لوضعت أصابعى فى عينيه . . أو لنزلت على رأسه بحذائى هذا – مشيرا إلى حذائه ! .

أى أنه لا يقبل مناقشة فى ذلك . .

رحم الله أستاذنا د عثمان أمين ، فقد رد عليه قائلا : ولكن يا أستاذنا كيف ترفض أن يناقشك أحد الآلهة ؟ ! .

واتجه إليه الأستاذ ليقول : يا دكتور . إن آلهة الإغريق ليسوا آلهة . . إنهم صناعة بشرية . . فقد صنعتهم العبقرية الإغريقية . . إنهم ليسوا آلهة ، إنما هم حيوانات تتنكر فى ملابس الآلهة . . إنهم ممثلون يقومون بدور الآلهة . . وهذه هى عظمة الفكر الإغريقى . . والفيلسوف الألمانى نيتشه على حق عندما يرى أن الديانة المسيحية قد أفسدت الفلسفة الإغريقية . . فى الديانة المسيحية نجد أن الله خلق الإنسان على صورته ، ولكن فى الفلسفة الإغريقية نجد أن الإنسان هو الذى خلق الله على صورته . . وأستاذكم أرسطو يقول : لو أن للجاموس إلها ، لجعلوا له قرنين . . فإذا لم أناقش إلها من هذا الطراز . . فهل أناقش شيخًا أزهريًا مثل الشيخ طه ؟ . . يامولانا إن المقاييس قد اختلت فى أيدى الناس ، إن الناس فى حاجة إلى أصابع دقيقة متزنة تتعلق منها الموازين . إن الناس فى حاجة إلى أناس ، والعقل البشرى فى حاجة إلى عقل جديد .

ولابد أن يكون د . عثمان أمين أستاذ الفلسفة الحديثة ، قد أخجله أن يحدثه الأستاذ أمام تلامذته بهذه اللهجة ، فقال معترضا وموضحا : لقد تعلمت فى فرنسا . وتعلمت أن النقاش أساسى . وأنه عن طريق النقاش والحوار تتولد المعانى . وإذا كان أستاذنا العظيم سقراط يهتدى إلى معانى الألفاظ عن طريق التساؤل عن معانيها ، وعن طريق حواره المستمر مع تلامذته ، فإن الفلسفة الفرنسية قد ذهبت إلى أبعد من الفلسفة الإغريقية . . فهى تناقش الكلمات . . ثم تزن معانيها ، وتناقش تركيب هذه المعانى . . ثم تزن الطريق إلى أهداف هذه المعانى . . فالمفكر جواهرجى . . يزن كل شىء بحساب . . وبغير ذلك لا يمكن أن نصل إلى الحقيقة . .

ولا يطيق الأستاذ صبرا على هذا الأسلوب فى الحديث . . أى لا يطيق أن يلقنه أحد درسا فى التفكير ، فيقاطعه قائلا : وهل شىء من ذلك فيما كتبه طه حسين ومحمد مندور ، وفى ترجمة لطفى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السيد لكتاب « الأخلاق » لأرسطو ، وفى هذيان د . زكى مبارك ؟ . . يا مولانا إن الإنسان ليس فى حاجة إلى أن يذهب إلى فرنسا ليكون واضح التفكير . . وليس الفرنسيون قد احتكروا صناعة الكتابة ولا أصول الفلسفة . . ولا أعتقد أنهم أقدر الناس على فهم الحياة أيضا !

وأروع ما فى هذه المناقشات ليس ما يقال فيها مباشرة ، ولكن الذى يجىء عن غير قصد . فالأستاذ يقارن كثيرا جدا بين الإنسان والحيوان . . أو بين السلوك الحيوانى والسلوك الإنسانى . ويرى الأستاذ أن الحيوانات هى « مسودة » الإنسان . . أى أن الحيوان مرحلة من مراحل التطور الإنسانى . وأن الإنسان حيوان تعلم أن يخفى مشاعره ، وأن الحيوان إنسان لا يقدر على إخفاء رغباته . . ولذلك فلكى نفهم الإنسان يجب أن نتجه إلى الحيوان أو الطفل أو المجنون . . وكان الأستاذ قد أولع بمراقبة الطيور فى أسوان . . الطيور المهاجرة من السودان . وكان يجرى وراءها ويحسب حركاتها . . وينتظرها . . ولديه أسطوانات بأصوات الحيوانات . . وكنا نجد ذلك عجيبا ! .

(ووجدنا لدى الأستاذ بعد وفاته ، أسطوانة مسجلا عليها صوت طفلة صغيرة . وكان قد سجل صوتها أثناء مرافقته لها فى المعرض الدولى . وأغلب الظن أنها هى الفتاة التى انتحرت يوم توفى الأستاذ . وقد لاحظ من كان يمشى إلى جوارى فى جنازة الأستاذ أن النعش يكاد يتراجع ويتجه إلى ناحية بيت الفتاة ؟ ! مع أن بيت الفتاة المنتحرة كان بالقرب من نفق مصر الجديدة . والجنازة كانت تمشى أمام نقابة الصحفيين – وسوف أعود إلى ذلك فيما بعد . .)

ومنذ ذلك اليوم وأنا أشد الناس حبا لكتب الحيوانات . . وأدين بالمتعة العظيمة لاثنين من المفكرين : العالم النمساوى لورانتس ، والعالم الإنجليزى دزموند موريس . .

وأصبح مألوفا لدينا : تناول طه حسين بعنف شديد . . هو يفعل ذلك . وطبيعى أن يتناوب الحاضرون الهجوم على طه حسين لأسباب مختلفة ، وأكثر الذين يهاجمون طه حسين هم من أساتذة الجامعة الذين يحضرون إلى صالون العقاد . ولكن اعتقدت بعد ذلك أن طه حسين اقترب من حقيقة العقاد . ولكنه لم يرها . أو غلبته الرغبة فى السخرية ، على لمس الحقيقة . فليس صحيحا أن العقاد قد تأثر باللغة الألمانية التى لا يعرفها ، ولكن من المؤكد أنه تأثر بالفلسفة الألمانية . . فهو قد تأثر بنيتشه وفكرة البطولة والإنسان الأعلى وصناعة التاريخ . . وحب العقاد للمفكر الإنجليزى توماس كارليل ليس إلا حبا للفلسفة الألمانية المثالية . ولكن بلغة أخرى . . كما أن الأستاذ قد تأثر بالفيلسوف الألمانى شوبنهور . فالعقاد متشائم ، رغم أنه ينكر ذلك . ورأى العقاد فى المرأة سيئ جدا . وهو متأثر فى ذلك بشوبنهور أعدى أعداء المرأة فى كل العصور . .

والأستاذ العقاد لا يحترم المرأة . أو على الأصح لا يعطيها أكثر مما تستحقه . إنما يعطيها ما تستحق . وهذا يغضبها . . فهو يرى أن المرأة لم تتفوق فى أى شىء ، فالمرأة تلد من مئات الألوف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من السنين ، ولكننا لم نعرف طبيبة مولدة بارعة . . أو عالمة اخترعت شيئا يخفف على المرأة آلام الولادة . . والمرأة تطهو . ولكن أشهر الطهاة رجال . . والمرأة تخيط ملابسها . ولكن أشهر مصممى الأزياء من الرجال . . والمرأة تبكى وتلطم ولكن أروع شعر المراثى هو الذى نظمه الرجال وليس الذى نظمته الخنساء ! ويرى الأستاذ أن أعظم عمل تقوم به المرأة هو أن تلد . وهو ما يعجز عنه الرجل . وإذا كانت المرأة هى التى تصون الحياة ، فإن الرجل هو الذى يطورها . . وإن عالم المرأة ضيق جدا : فهى تقارن الرجال بزوجها أو حبيبها أو ابنها . . وللتدليل على ضيق أفق المرأة فإنك تسألها : كيف حالك ؟ فتقول لك : إن الأولاد لا بأس بهم ، وإن زوجها مريض . . وإذا سألت رجلا عن حاله فإنه يحدثك عن عمله . . أو عن السياسة أو التطورات العلمية .

ويقول الأستاذ العقاد ، وهو يردد ما قاله شوبنهور : إن المرأة أقدر على معايشةالألم والعذاب . وليس سبب ذلك قدرتها على الاحتمال . إنما سبب ذلك بلادة حسها . . فالممرضة ترى أنواع العذاب والدماء والصديد وتسمع الصراخ والبكاء وتبلع ذلك . . لا لأنها ملاك الرحمة الذى يعمل على إنقاذ المعذبين ، ولكن لأنها بليدة الحس !

وكان الأستاذ يقول أيضا : إن المرأة قد وضع الله فى جسمها مكانا لكائن آخر . . ومن أجل سلامة هذا الكائن الآخر ، خصتها الطبيعة بالقوة . ولذلك فليس صحيحا أن المرأة جنس لطيف . بل هى جنس عنيف . . إذ كيف تقوى على احتمال هذه الآلام الشنيعة عند الحمل والولادة ؟ .. وفى كل مرة تحمل المرأة وتلد تقسم ألا تفعل ذلك مرة أخرى . . وتلد . . إن زوجة تولستوى عندما هددته بأن تترك له الدنيا لم يهتز . . وعندما هددته بألا تلد ، وهى تعلم حبه للأطفال . راح يصالحها ويرضيها . . وكانت ولاداتها جميعا عسرة . . ومع ذلك ولدت له ١١ ولدا . وفى كل مرة تقسم أن يكون وليدها هو الأخير . . ثم ان الطبيعة قد عزلت الأم عن طفلها . . فأمراضها لا تنتقل إليه . .

ويقول الأستاذ : ولو لاحظت المرأة وهى نائمة عارية إلى جوارك لوجدت أنها عندما تتنفس فإن بطنها لا يعلو ولا يهبط . لماذا ؟ لأنه مطلوب ألا توقظ أو تزعج الطفل فى داخلها ؟ !

وليس هذا صحيحا . ولكن الأستاذ كان يردد مثل هذه الملحوظة الأخيرة . ولك أن تستنتج إن كان الأستاذ قد رأى ذلك حقا ؟ !

ولم يكن اسم الاستاذ توفيق الحكيم يتردد كثيرا فى هذا الصالون . فهو ليس سياسيا وليس خصما أدبيا . إنما هو ... والناس يضحكون فى كل مرة يجىء فيها اسم توفيق الحكيم فهو رجل ظريف . أو هو رجل ساخر . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان بعض الحاضرين يتحدث عن الحكيم « عدو المرأة » . . وأنا أعتقد أن العقاد هو أعدى أعداء المرأة . ولكن عداوة الحكيم للمرأة هى سخرية منها أى أنه لم يجد المرأة التى تعجبه . وإذا أعجبته فإنها لا تصلح لما يريد . .

وفى يوم جاء زميل بمسرحية لتوفيق الحكيم ويبدو أنه كان مكلفا بعمل دراسة عنها . وأنه اختلف مع أستاذه حول معناها . وجعل يقرأ والعقاد يتململ . ويقلب وجهه بين الحاضرين . وكانت حركة عينيه أسرع من حركة عنقه . . وقبل أن يكمل الزميل قراءة المسرحية ، قال الأستاذ : وماذا فى هذا الذى تقرؤه ؟ . إن الحكيم ذهب يعاكس إحدى الفتيات . ولما فشلت المعاكسة كتب هذه المسرحية . . إنها فتاة تبيع التذاكر فى شباك أحد المسارح . حاول معها . . وجدها غالية الأجر . . راح يساومها ، رفضته . . أليس هذا هو المعنى الذى أراد أن يقوله عدو المرأة ؟ إنه ليس عدوا . . إنه خائف منها فقط . . ولكن من المؤكد أنه يحبها . ولكن هذا الحب يكلفه مالا وطاقة ، ولا مال عنده ولا قدرة له على المرأة . . فهل تسمى نفسك عدوا للهواء لأنك عاجز عن الطيران . وتسمى نفسك عدوا للماء لأنك عاجز عن السباحة وتسمى نفسك عدوا للسم لأنك لا تبتلعه إذا وجدته . . وتسمى نفسك عدوا لملايين الجنيهات التى لا تجدها ، ويستحيل أن تجدها ؟ . . إن هذه تقاليع أخينا توفيق .

وفى المترو قرأت مسرحية « شباك التذاكر » . . أو بائعة التذاكر . . وأعجبنى الكلام . . الحوار . . إنه أسلس من محاورات أفلاطون . . وأيسر من محاورات العقاد فى كتابه « فى بيتى » . .

ولكن لم أستطع أن أدرك بالضبط قيمة توفيق الحكيم فى ذلك الوقت ، فلم أكن ذهبت إلى المسرح ولا عرفت معناه ومبناه . . ولا فهمت مدلولات العبارات التى تجىء وسط الحوار مثل : ويجلس على المقعد ، أو يفتح شباكا إلى اليسار . ويدخل الضوء من اليمين . أو يمشى إلى مقدمة المسرح . . أو ينزل الستار أو ينفتح . . وإن كانت هذه العبارات ليست لها دلالة كبيرة فى مسرحيات توفيق الحكيم . . بل تستطيع إغفالها تماما ، ويمشى الحوار السهل ، ويتدحرج القارئ إلى المصيدة التى ينصبها توفيق الحكيم للقارئ الذى يضحك عليه ويتركه .. ويهرب إلى مسرحية أخرى !

ولم يكن الأستاذ يحب المسرح أو التأليف الروائى ، ومن المؤكد أنه قرأ عن الأعمال الروائية الكبرى ، ولكنه لم يعش معها طويلا . قال لنا ذلك . فهو كاتب مقال من الدرجة الأولى . ولذلك فهو صاحب منطق تحليلى . ومحاولاته فى الحوار ساذجة ، ومحاولته فى كتابة الرواية أيضا . . مثل محاولة طه حسين فى كتابة القصة القصيرة . . بينما توفيق الحكيم الذى اشتهر بالقصة القصيرة والرواية والمسرحية ، من أحسن مؤلفى المقالات ، رغم أنه لم يشتهر بذلك . .

وكان الأستاذ إذا تحدث عن طه حسين والحكيم يقول : طه حسين خبيث جرىء ، والحكيم خبيث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خائف . . ولذلك فطه حسين هو الذى يقود الحكيم . ولكن الحكيم أخبث من طه حسين ، لأنه يؤكد له أنه خائف ، وأنه لا يقوى على مواجهة النقد ، وبذلك يرضى غرور طه حسين ويتقى شره . .

ولا أعتقد أن الأستاذ كان يعرف القيمة الحقيقية لتوفيق الحكيم ، وسبب ذلك أن فن الحكيم لا يمتعه ، لأنه لا يحب هذه الأشكال الأدبية التى اختارها الحكيم : القصة والرواية والمسرحية : ثم إنه لا يحب الرمز . فنى القصة والرواية والمسرحية « رمز » سياسى واجتماعى . ولأنه رمز فليست فيه المواجهة المطلوبة التى يتعرض لها الكاتب السياسى . فالحكيم يستطيع أن يهاجم السلطة ولا يهاجمها ، لأنه يشير الى ذلك رمزا . . والأستاذ يرى أن المفكرين السياسيين هم أشجع الناس . وهم ضحايا السلطة . وهم القوة الدافعة للتاريخ . . ولم يدخل السجن أديب أو شاعر إلا عندما كان صريحا فى تحديه للسلطة . ولكن إذا لجأ الكاتب إلى الرمز ، فقد اختار « التعمية » أو « الكاموفلاج » الذى تلجأ إليه بعض الحيوانات وهى تختفى بين الأشجار أو بين الرمال أو بين الصخور : حماية لها من عدوها وتربصا بفرائسها فى نفس الوقت . .

وعرفت فيما بعد ، أن هؤلاء الثلاثة : العقاد وطه حسين والحكيم ، لم تكن لهم صلة دائمة . وأنه قد تمضى السنوات لا يكلم واحد منهم الآخر . وإذا تلقى برقية تهنئة أو تعزية فإن ذلك يعتبر حدثا ينشط العلاقة الراكدة . . ثم يعود كل شىء إلى ما كان عليه : الانقطاع والعزلة والمتابعة فى الصحف والإذاعة . .

(وفى الستينات جمعتهم الثلاثة على خط تليفونى واحد . فكنت أسأل الواحد وأنقل الإجابة إلى الآخر . . وكانوا ثلاثتهم يهاجمون بعضهم البعض وبعنف . ونشرت ذلك فى حينه !) .

وفى يوم سألت الأستاذ : يا أستاذ . إنى أتابع حالة شاذة فى مستشفى الأمراض العقلية . . إنها فتاة زفت إلى عريسها ، وفى اليوم التالى جمعت ملابسها متجهة إلى قصر عابدين ، لأن الملك فاروق قد طلب إليها أن تترك زوجها ، فقد اختارها ملكة لمصر !

فنى ذلك الوقت كنا ندرس علم النفس . وكان أستاذنا د . يوسف مراد يطلب إلينا أن نذهب إلى مستشفى الأمراض العقلية ، وأن نجلس مع الأطباء وأن نراقب بعض الحالات المرضية . وأن نكتب ما سمعنا وما فهمنا . وكان من نصيبى أن أدرس حالة هذه العروس . ولم أهتد حتى الآن إلى فهم حالة هذه المريضة . . فكلامها معقول جدا ! فهى تقول إنها تزوجت بالرغم منها . . وقرأت فى الصحف أن الملك فاروق ساعد عروسا على طلاقها من عريسها الذى يكبرها بعشرين عاما . والذى « اشتراها » من والدها . . وإن هذه هى حالتها بالضبط . . وإن الملك فاروق كان يقصدها هى بالذات . .

وكان الأستاذ شديد الاهتمام . وكان يجد متعته الكبرى فى التحليل النفسى . ولم يدعنى أكمل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القصة ، إنما سبقنى إلى القول : أمامك مذهبان . . إما أن تحلل أحداث طفولتها ، وإما أن تعرف علاقتها بأبيها . . أما علاقتها بزوجها هذه فلا تهم . فالزوج قد ظهر أخيرا . . ولم يظهر فى حياتها ، إنما فى حياة أبيها . . فهو قد سقط فوقها وسقط بها بين يديك . . ولكن ما الذى يقوله أساتذتك حلاً لهذا الإشكال الذى أمامك ؟

قلت : إن هناك اجتهادات عديدة . . بعضهم يرى أن أهتم بحالتها الصحية . وبسبب حالتها الصحية ، تكون حالتها العقلية . . أى أن العقل السليم فى الجسم السليم . .

وغضب الأستاذ قائلا : إذن فلماذا لا ينتقل قسم الفلسفة بأساتذته إلى حديقة الحيوانات ، حيث الحيوانات أجسامها أسلم وأقوى ، ولابد أن عقولها أسلم أيضا ؟ . . يا مولانا . إن هذا الذى تدرسونه تخريف . . إن أساتذتكم أحق الناس بالذهاب إلى مستشفى الأمراض العقلية . . ثم ما الذى يمكن أن تستفيده من زيارة هذا المستشفى إذا لم تكن مسلحا تماما بنظريات كثيرة تساعدك على فهم ما ترى ؟ . . لا تذهب . . اقرأ وبعد ذلك سوف تجد من أساتذتك وزملائك ومن الملوك والرؤساء من هم أكثر جنونا من هذه العروس المسكينة . .

ولا أعرف من هو الزميل الذى لاحظ خيبة أملى وضيق الأستاذ بهذه الحادثة ، فاتجه إلى حادث جليل وقع قبلها بأيام . فقد نوقشت رسالة الدكتوراه المقدمة من عبد الرحمن بدوى . وكان موضوعها « الزمان الوجودى » وكان طه حسين عضوا فى لجنة الامتحان وكذلك الشيخ مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الواحد وافى والمستشرق باول كراوس وعميد الكلية حسن إبراهيم ، وانتهت المناقشة بأن حمل الطلبة عبد الرحمن بدوى على الأكتاف . لا أظن أنهم فهموا شيئا من الرسالة . ولكن ضايقهم د . على عبد الواحد وافى أستاذ علم الاجتماع ، الذى لم يكن يطيق عبد الرحمن بدوى ولا فلسفته الألمانية ولا غروره وغطرسته . . أما على عبد الواحد وافى فهو من مدرسة علم الاجتماع الفرنسى ومن تلامذة العلماء : دور كايم وهلفاكس وأوجست كونت . . وغيرهم . .

وفى هذه المناقشة أعلن طه حسين أن عبد الرحمن بدوى هو أول فيلسوف مصرى . . وكان طه حسين قد أوفد عبد الرحمن بدوى ، وهو ما يزال طالبا ، فى بعثة إلى فرنسا . وفى هذه الرسالة ظهر اقتدار عبد الرحمن بدوى الفلسفى وتمكنه التام من الفرنسية والألمانية والإيطالية والاسبانية واليونانية واللاتينية والعربية ، وقدرته الفائقة على نحت الكلمات الفلسفية التى ليس لها نظير فى اللغة العربية الحديثة . فرسالته ليست إلا محاولة لأن يكون له « مذهب » فلسفى . . رغم أن الوجودية ليست « مذهبا » لأنها لا تجيب عن كل الأسئلة الضرورية ، لأن المذهب . . هو التفسير الكامل لكل الألغاز المعروفة فى الفلسفة وهى : الله والكون والإنسان والقيم الأخلاقية والجمالية والحياة وما بعد الحياة . . إلخ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هل أكمل هذا الزميل روايته لما حدث فى كلية الآداب ، وما الذى قاله طه حسين والمستشرق باول كراوس . وكيف إن عبد الرحمن بدوى اختلف مع د . على عبد الواحد وافى ، على نطق اسم العالم الكبير دور كايم ؟ – فعلى عبد الواحد ينطقه كما نكتبه هكذا . ولكن عبد الرحمن بدوى ينطقه دور كهايم – وكان هذا الخلاف الصغير يشير إلى خلافات أكبر لم نكن نعرفها فى ذلك الوقت .

ومن المستبعد تماما أن يكون طه حسين قد فهم رسالة عبد الرحمن بدوى ، لأن عبد الرحمن بدوى لا تنطبق عليه الشروط الضرورية ليكون الإنسان واضحا : فهو يعرف اللغة الألمانية جيدا ، وهو متأثر باللغة والفلسفة الألمانية المثالية المعقدة . . وقد اختار من بين الفلاسفة الألمان أصعبهم جميعا : مارتن هيدجر . وجعله مثله الأعلى . . وعبد الرحمن بدوى من الذين يعرفون الكثير عن أشياء كثيرة فى المذاهب الفلسفية فى كل العصور . إذن فعبد الرحمن بدوى نموذج لما يجب ألا يكون عليه الكاتب أو الفيلسوف من وجهة نظر طه حسين .

ولكن طه حسين يختلف عن العقاد فى أنه أستاذ . وأن لديه أبوة روحية لكثير جدا من تلامذته . ولذلك فقد أسعده أن يكون من تلامذته مثل عبد الرحمن بدوى الذى يحاول أن يكون له مذهب فى الفلسفة . وإن لم يفهم طه حسين مما يقوله سطرا واحدا . .

ولم يكن الأستاذ العقاد فى حاجة إلى أكثر من ذلك لكى يعصف بطه حسين وبدوى وتلامذة الفكر الفرنسى . فقال غاضبا : ما هذا الذى حدث عندكم يا مولانا ؟ أريد أن يدلنى أحد على معنى « الزمان الوجودى » قل لنا ياسيد أنيس . . إن معنى الزمان معروف ومعنى الوجود معروف . . فما معنى الاثنين معا ؟ . وإذا كان لهما معنى ، فهل يكفى ذلك لتفسير بقية مشاكل الكون والعلاقات الإنسانية ؟ . وهل فهم الشيخ طه شيئاً من هذه الفلسفة الألمانية التي تتحدثون عنها ؟ وهل هي التي ساعدتك أنت على فهم مشكلة هذه العروس ؟ أو هل تساعد أخانا الحكيم على اصطياد فتاة دون أن يدفع قرشاً أو يبذل جهدا لاحتضانها ؟

وضحك – وهو الوحيد الذى فعل ذلك – المرحوم د أحمد فؤاد الأهوانى قائلا : وهل من الضرورى يا أستاذ أن يساعدنا المذهب الفلسفى على أن نوقع فتاة فى غرامنا ؟ . . إن الإنسان ليس محتاجا إلى مذهب . إنما هو محتاج إلى شطارة وإلى بضعة قروش . . أو ربما إلى حيلة وخداع . . ولكن المذهب الفلسفى مثل المثالية والوضعية المنطقية أو حتى الوجودية ، يهتم أكثر بالقضايا العامة ، وليس بالسلوك الفردى للإنسان . . فقد أختلف معك يا أستاذ فى فلسفتك ، ولكنى لست فى حاجة إلى أى مذهب فلسفى لكى أناقشك إنما أحتاج إلى مبادئ الفكر العادية جدا . . وأنا شخصيا لا أفهم كلمة واحدة من جميع كتب عبد الرحمن بدوى . . رغم أنها ليست إلا تجميعا وتكديسا لمعلومات ومراجع لا أول لها ولا آخر . وليس له رأى شخصى فى شىء من ذلك كله . .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكنا نعرف ما الذى يحدث عادة إذا تحدث أحد أساتذة الجامعة إلى الأستاذ الذى أكمل تعليمه الابتدائى فقط ، والذى لم يدرس فى الجامعة ولا دعاه أحد لإلقاء محاضرة فيها . . ولما قيل للأستاذ يوما إن الجامعة تفكر فى إعطائك الدكتوراه الفخرية . . غضب العقاد قائلا : ومن الذى يمتحن العقاد ؟

ولم يكن الأستاذ يعرف أن الدكتوراه الفخرية لقب وليست رسالة يقدمها ويناقشونها وبعدها يحصل على اللقب !

لقد كان الأستاذ يضيق بأساتذة الجامعات ، يضيق بالقوالب الفكرية التى عندهم ، ولا يطيق أن يكون هذا الكهنوت الذى يدعيه أساتذة الجامعة – وخصوصا طه حسين الذى إذا نطق كلمة « الجامعة » فإنه يعطش الجيم ويفخمها . .

وكذلك فعل أحمد لطفى السيد الذى كان رئيسا لجامعة القاهرة . . والذى أقام مجده على تشجيعه للروح الجامعية وحرية الرأى وترجمته لكتاب واحد للفيلسوف الإغريقى أرسطو . والكتاب اسمه « الأخلاق إلى نيقوماخوس » وقد ترجم هذا الكتاب عن الفرنسية . وأصبح لطفى السيد فيلسوفا . كما أصبح منصور باشا فهمى فيلسوفا أيضا . . وأخيرا أصبح عبد الرحمن بدوى فيلسوفا . وكان ذلك مما لا يستطيع الأستاذ احتماله . ولذلك توقعنا غضبا أحمر – أى غضبا يحمر له وجه الأستاذ ، أو يزداد احمرارا . فالأستاذ العقاد من أصل كردى ، مثل صلاح الدين الأيوبى . وهو عندما يتحدث عن احمرار بشرته وعن أصله فبشىء من الاعتزاز والخيلاء ، وهو فى ذلك تلميذ مطيع تماما للفلسفة الألمانية التى ترى تفوق الأجناس الآرية على غيرها . . والأستاذ من أصل آرى . .

وكل هذه المعانى تجمعت فى رأس الأستاذ بوضوح شديد عندما قال للدكتور فؤاد الأهوانى : نعم يا دكتور . . إن الإنسان محتاج إلى مذهب فلسفى لكى يحرك أصابع يده . . إن الفرق بين الحيوان والإنسان أن الإنسان قادر على تحريك أصابعه . . وضم أصابعه . . وهذه القدرة عند الإنسان هى التى جعلت الإنسان يصنع أدوات الصيد والبناء . . فالإنسان صنع طوب البناء وسهام ونبال الصيد . . والفيلسوف الألمانى اشبنجلر هو الذى قال إنه لولا مقدرة الإنسان على تحريك أصابعه ما كانت الحضارة الإنسانية كلها . . لأن الحضارة هى التطوير المستمر فى صناعة الأدوات . . صناعة الآلات . . ولكى يحرك الإنسان أصابعه احتاج إلى جهاز عصبى شديد التعقيد . . هذا الجهاز العصبى يقوم بضبط حركة الأصابع مع حركة العين والأذن والأنف وبقية الجسم الإنسانى . ولابد أن حركة الأصابع هى التى جعلت الإنسان يمد ذراعيه . . فيقف ويصلب عوده . . إن هناك نظرية تقول إن الزرافة طال عنقها لأنها عاشت فى منطقة غابات . . هذه المناطق جعلتها ترفع رأسها وتمد عنقها ألوف السنين . . فطالت أعناقها . . وهذا ما يصفه علماء الحياة بأن الوظيفة تخلق العضو . . فالوظيفة هى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن تأكل وتحصل على قوتها . . ولأن طعامها بعيد عنها فكان لابد أن يلاحق العضو الطعام . . والعضو هو الفم الموجود فى العنق القصير . . فطال العنق ليعيش الحيوان . . وقد نصف تحريك الأصابع بأنه شيء يسير جدا . . وهذا ما يبدو . . ولكن الحقيقة أنه مسألة معقدة جدا . . إن أكبر مشكلة واجهت العلماء فى العصر الحديث هى بناء إنسان آلى . . من أجل أن يقوم هذا الإنسان بتحريك المواد المشعة فى الأفران النووية . . أى يمسك قضبان اليورانيوم المميتة . . ويدخلها فى المفاعلات النووية . . ولكى يتمكن الإنسان الآلى من مجرد إمساك هذه المواد المشعة ، كان لابد من خلق إنسان متكامل . هذا الإنسان المتكامل احتاج إلى ألوف العيون والزراير التى تحركه من أجل أن نصنع له أصابع فقط قادرة على دفع قضبان اليورانيوم داخل الأفران . . نعم يادكتور . . إن الإنسان فى حاجة إلى مذهب فلسفى لكى يشترى سميطة ويلفها حول ذراع محبوبته ويشعر أنهما عروسان ، كما يقول لويس عوض وغيره من الشيوعيين . فهو لم ير فى السميطة تلتف حول ذراعى اثنين من العشاق عملا بسيطا ، إنما يرى فيها تطبيقا لمذهب فلسفى ماركسى لنينى . . إن أساطير أهل هولندا تتحدث عن طفل وجد البحر يزحف على بلاده يكاد يغرقها . ولاحظ أن الماء يدخل من ثقب فى أحد السدود . فذهب الطفل ووضع إصبعه وأنقذ بلاده . . إن الذى عمله الطفل شيء صغير ولكن الدافع إلى ذلك جهازه العصبى الذى جعله يسد الثقب واحتاج إلى عقل يهديه إلى أن هذا هو السبيل الوحيد لإنقاذ بلاده . . واحتاج إلى عقيدة دينية أو سياسية لكى يضحى من أجل الملايين الذين لا يعرفونه ولا يرونه وهو يموت من أجلهم . . لقد شاهدنا فى الحرب العالمية الأخيرة ، كيف إن اليابانيين يركبون الطوربيد الانتحارى ويوجهونه إلى السفن الأمريكية . . فما الذى يجعل يابانيا لا يراه أحد ، يتجه بنفسه إلى السفينة ولا يتجه إلى البحر . . فيغرق إلى جوار السفينة المعادية التى تنقذه ويعيش أسير حرب . . ولكنه يسدد الطوربيد إلى الهدف . . ليحطم الهدف ويموت معه ؟ . . وهو يعمل ذلك دون رقيب من أحد ، ودون تصفيق من الجماهير . . إنما هو شهيد مجهول . . إنه احتاج إلى عقيدة لكى يصيب الهدف . . ولكى يصيب الهدف فلابد أن يضبط بأصابعه وبعينيه أجهزة دقيقة تجعل موته الانتحارى استشهادا وطنيا . . نعم يا دكتور . . نحن محتاجون إلى مذهب من أجل أن نعمل أتفه الأشياء . . وإلا كنا مجانين . . ولكن المجانين لهم منطق . . فالمرض ليس خلوا من المنطق . . إنما المرض نتيجة مقدمات منطقية . . ميكروب دخل الجسم ونشط . . قاومه الجسم . وقد يؤدى هذا المرض المنطقى الخطوات ، إلى أن يصاب الإنسان بالهذيان . . ولكن حتى هذا الهذيان ، أى الخلو من المنطق ، نتيجة منطقية لخطوات أخرى سابقة . . !

والمعنى أنه لا شيء بغير عقل . ولا شيء بغير منطق . وأن أكبر الأشياء مثل أصغرها لابد أن تكون منطقية مع تفكيرنا أو مع فلسفتنا . وهذا هو الخلاف الكبير بين الأستاذ وكثير من الناس . فهو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يتصور . ولا عقله يقبل . أن يفعل الإنسان شيئا أو يقول كلاما بغير حساب أو بغير عقل . .

وهو لذلك لا يستبعد مطلقا أن يكون أساتذة الجامعة الذين يترددون عليه . يؤكدون له بحضورهم وبمناقشاتهم واختلافهم معه فى الرأى ، أنهم جامعيون وأنه ليس كذلك . . ولأنهم درسوا فهم أكثر علما منه – وهذا يضايفه !

والأستاذ طبعا لا يدرك أنه يتفق مع الفلاسفة الوجوديين الذين يرون أن هناك طريقتين لقتل الفلاسفة : أن نقتلهم وأن نقررهم على طلبة الجامعات . . فالتدريس الجامعى قاتل للموهبة . أى قاتل لموهبة الأستاذ وموهبة الطالب معاً !

ولكن هذه « المرافعة » الطويلة لم تقنعنى بأن الأستاذ كان على حق . فأنا لست فى حاجة إلى مذهب فلسفى أو نظرية سيكلوجية لكى أحرك أصابعى أو يدى أو ذراعى كلها لكى أطرد ذبابة وقعت على يدى .. إننى فقط أقوم بطردها غريزياً . . وأفعل ذلك دون وعى منى ، وأفعل ذلك وأنا مستغرق فى النوم ! !

ولا أعرف كيف انتهى ذلك اليوم . ولكنه انتهى . واختفينا بعيدا عن أساتذتنا . فقد أحرجهم الأستاذ وأخجلهم أمامنا . . ولم يكن يعنينا كثيرا ما يصيبهم ، ولكن يعنينا أكثر ما يقوله الأستاذ وما يرضيه . . وأن نرضيه . .

وعند الخروج داعبى الأستاذ قائلا : لا تذهب إلى مستشفى المجانين يا مولانا . فقد تعجبك العروس وتنسى سبب ذهابك إليها . . إن هذا يحدث كثيرا فى التحليل النفسى . . يحدث أن يتعلق المريض بالطبيب . ويتوهم أن عناية الطبيب به نوع من الحنان الخاص ، وليس الحنان المهنى . أى الحنان الضرورى لإعطاء المريض نوعا من الأمان تمهيدا لفهمه وعلاجه بعد ذلك . . حتى العالم الكبير فرويد قد وقع فى هذا المطب ، وأحب إحدى مريضاته . . ولكنها لم تحبه !

ولا أظن أن الأستاذ قد خفف عنى شيئا عندما قال لى ذلك . . وقد أحسست أن رأسى بالون منفوخ ومليء بالهواء الساخن . . وأنه منطاد . . وأنه يطير بى من فوق الأرض . . أريد أن أصل إلى حديقة الأسماك . . وأجلس فى الظل . وأستمتع بالسندوتشات والبرتقال . . ثم أنام ، وبعد ذلك أذهب إلى مدينة الملاهى . . لأغرق نفسى فى الضوضاء . . فقط فى الضوضاء دون أن أدعى أننى أرى أى شيء . .

فعندى طريقتان لأريح رأسى : أن أنام ، إذا استطعت . . وأن أجلس فى الضوضاء فأجعل العالم كله يتزاحم فى المسافة التى بينى وبين نفسى !

ولا أظن أننى فى تلك الليلة قد وفقت إلى شيء من ذلك !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كنا نسميه : يوم القيامة ؟!

لم يكن أحد قد جاء بعد . فقد ذهبت مبكرًا . وجلست وحدى . ولم أتوقع أن يجيء الأستاذ بهذه السرعة . سمعت وقع قدميه . قبل أن يقترب من الغرفة كنت قد وقفت . وربما كنت قد مددت يدى . وجاء الأستاذ : أهلا يامولانا .. جئت مبكرا .. لابد أنك أيضا من الطيور المبكرة . إذن فأنت مثلى لاتعرف النوم الطويل .. أو لعلك لاتعرف النوم العميق .. أو لعلك تعرف النوم القليل العميق .. كان نابليون ينام على حصانه فى قلب المعركة .. وقيل إن القائد الألمانى روميل يستطيع أن ينام فى الدبابة والمعارك دائرة .. إنه قد أعطى التعليمات وفقا لتصوره .. ورأى بعد ذلك أنه قام بواجبه .. وعلى الآخرين أن يقوموا بواجبهم .. فنام ليسهروا هم أيضا .. والذين يقولون عن الذئب إنه ينام بعين واحدة ويصحو بالأخرى إنما يصورون كيف يكون الحذر ..

ثم سكت لحظة ومضى يقول : وهذا تشبيه صحيح لولا أن الذئب ينام بنصف عين .. أى بنصف نوم وبنصف يقظة أيضا .. ويوم يستطيع أحد أن يحقق راحة النفس وراحة الضمير فإنه ينام مثل عمر بن الخطاب . الذى وصفه أخونا حافظ إبراهيم فى قصيدته « العمرية » الشهيرة :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا ... بين الرعية عطلا وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها ... سورا من الجند والأفراس يحميها
رآه مستغرقا فى نومه فرأى ... فيه الجلالة فى أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا ... ببردة كاد طول العهد يبليها
فهان فى عينه ماكان يكبره ... من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلا ... وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها :
أمنت لما أقمت العدل بينهم ... فنمت نوم قرير العين هانيها

وأخونا حافظ إبراهيم كما تعلم يشير إلى المعنى الذى قاله سفير كسرى أنو شروان إلى عمر بن الخطاب : حكمت فعدلت فأمنت فنمت ياعمر ! ..

ولم يتوقع منى الأستاذ أن أرد على كل هذه التساؤلات . فأنا أعرف معنى ذلك .. إنه عادة لايسأل أحدا . إنما هو يتساءل أمامنا .. ثم يرد هو على الأسئلة .. وأعرف أنها عادة كثير من المتحدثين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمفكرين أيضا . فوجودنا ليس فى الدرجة الأولى من شعوره .. إنما هو مثل وجود المقاعد على الأرض واللوحات على الجدران ، ومثل أصوات الباعة تجىء من الشارع .. أو جرس التليفون يدق بعيدًا أو صوت « وابور الغاز » فى المطبخ .. وليس فى ذلك امتهان لأحد .. إنما هو مشغول تماما بما يريد أن يقوله « بمناسبة » أننا هناك .. أعرف هذه المشاعر كلها وأجربها وأعانيها .. ويعانى منها الآخرون عندما يكتشفون فجأة أننى لاأقصدهم بالحديث . إنما أنا أتحدث إلى نفسى على مسمع ومرأى من الآخرين ..

وكل الذى أردت أن أقوله للأستاذ ، قلته فيما بعد فى « حديقة الأسماك » فى الزمالك عندما جلسنا تحت إحدى الأشجار .. وبدأ كل واحد منا يعرض على الآخرين ماذا حصَّل وماذا جمع .. تماما كأننا مجموعة من الصيادين .. كل واحد منا قد اتجه إلى ناحية . وغاب طول اليوم . وعند الغروب التقينا .. هذا كان يصيد الأسماك .. وهذا يصيد العصافير .. وهذا يصيد « الدبابير » .. ولم نكن فى أكثر الأحيان سعداء بما لدينا .. فنحن مرهقون بالقراءة والدراسة .. وطرقنا طويلة ، وساعات الراحة قصيرة .. ولاشىء يدهشنا جميعا إلا هدوء حى الزمالك .. وإلا الروائح الغريبة يأتى بها الهواء من البيوت .. روائح الطعام والشواء والعطور .. وهذه الروائح إذا نحن مررنا أمام البيوت ذات المداخل الفخمة ، فإنها تصبح دافئة وباردة فى نفس الوقت .. وتكون هناك أصوات هامسة وموسيقية مرافقة لها : كأنها زفة من العطور ، أو نسائم من الموسيقى .. وطبيعى جدا أن يخرج من هذه البيوت أناس مختلفون عنا .. كنا نرى الوجوه شاحبة ، والملابس نظيفة .. وكنا نجد فى هذا الشحوب والهزال تعويضا لنا .. فلديهم كل شىء إلا صحتنا . ولدينا كل شىء إلا طعامهم وشرابهم وموسيقاهم وعطورهم .. إنهم مغسولون فى النور ، ونحن مغمورون فى الطين .. لماذا ؟ لم يخطر على البال هذا السؤال .. فالذى على عيوننا وفى آذاننا يشغلنا كثيرا عن مثل هذه التساؤلات ..

وعندما تجىء الخادمات بالأطفال الصغار .. كل خادمة قد ارتدت زيا أنيقا ووضعت مريلة بيضاء .. ودفعت أمامها عربة بها طفل .. هو سيدها .. ولكن بعض الخادمات كن يتكلمن الفرنسية والإيطالية وأحيانا الألمانية ..

فى ذلك الوقت شاءت الصدفة أن ألتقى بصديقى الفنان حسن فؤاد .. تقابلنا قبل ذلك فى مدينة الملاهى .. وكان الجنس هو الموضوع . لماذا ؟ لأن الجو العام يوحى بذلك .. فنحن شبان وحولنا فتيات كثيرات .. فى الشوارع وفى البلكونات وعلى المقاعد جلس المحبون .. اثنين اثنين . وكان حادثا عجيبا عندما رأينا تصوير فيلم «دايما في قلبى» لعقيلة راتب وعماد حمدى من إخراج صلاح أبو سيف .. فقد نامت عقيلة راتب على الحشيش وإلى جوارها عماد حمدى وجاءت الأضواء القوية تكشفها أو تفضحها .. ووقفنا نتفرج : حسن فؤاد وأنا وعدد كبير من الخادمات والأطفال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والعشاق .. ولم أفهم بالضبط معنى ماحدث .. ولكن قيل لى إنه فيلم . ولم أكن قد ذهبت إلى السينما بعد . ولا أعرف معنى فيلم أو التمثيل على الشاشة أو على المسرح ..

وقد تذكرنا هذه الحادثة بعد ذلك يوم سافرنا معا على ظهر الباخرة « اسبريا » إلى أوروبا سنة ١٩٥١ . وكان عدد كبير من الفنانين : صلاح طاهر وحسين بيكار وكمال الملاخ وجمال كامل وعبد الغنى أبو العينين ولبنى عبد العزيز وحسن فؤاد ..

سألنى حسن فؤاد : هل تعرف كيف يتعانقون فى روسيا ؟

قلت : لا أعرف .

قال : هناك عناق اسمه : عناق الأفاعى .. وذلك بأن يتعلق الرجل والمرأة فى فرع إحدى الأشجار ويحتضن كل منهما الآخر بذراع واحدة .. ثم يسقطان على الأرض يكملان العناق ..

وأدهشنى ذلك . ولم أفهم ما الذى يدفع الناس إلى هذا العذاب العاطفى ، أو هذه المشقة الجنسية مادام فى إمكانهما أن يتعانقا على الأرض .. ولكن فهمت أن هذا نوع من الشذوذ الجنسى ، أو أنه نوع من الملل قد دفع إلى عمل شىء غريب .. شىء شاذ .. وأن هذا طبيعى عند الشعوب . . فعندما تضيق بالأشياء العادية فإنها تبحث عن الأشياء الشاذة .. وهذا الشذوذ هو الذى ينعش الإحساس ، لأنه يوقظ الغرائز التى نامت ..

ولا أعرف كيف تشجعت إحدى الخادمات ونحن فى حديقة الأسماك واقتربت لتشترك فى المناقشة فقالت : إننى رأيت الشبان فى نابولى يتقلبون كالأسماك فى الزوارق .. ولو نظر إنسان من بعيد لخيل إليه أن حوتين كبيرين فى حالة عشق عظيم ..

ولم يندهش زملائى لاشتراك هذه الخادمة فى الحوار . فهم على صلة يومية بها ، فهم يجيئون إلى حديقة الأسماك كل يوم .. ويبدو أننى أكثرهم دهشة . أو سذاجة . فقد ظهرت دهشتى على وجهى بوضوح فقالت لى : نعم .. قد سافرت إلى إيطاليا أكثر من مرة .. وأنا أعمل عند أسرة إيطالية . ولكنى تعلمت اللغة الإيطالية فى المدرسة ..

شىء غريب .. إنها سافرت إلى إيطاليا .. ولم تتعلم اللغة الإيطالية من السفر . أو من معاشرة الإيطاليين ، إنما فى المدرسة . فلماذا هى تعمل خادمة .. أو ترضى أن تكون كذلك ؟ . . وأسئلة أخرى طفت على لسانى وطافت برأسى .. ولم تكن لها أهمية كبيرة وهى لذلك لم تشغلنى .. ولم أتوقع من أحد أن يجيبنى عنها .. ولم يحدث أننى انفردت بهذه الخادمة . لارغبت فى ذلك ، ولارغبت هى أيضا ..

ولكن حدث بعد عشرين عاما . وكنت رئيسا لتحرير مجلة « الجيل » أن تلقيت دعوة إلى زفاف .. والدعوة عليها أسماء لأناس لاأعرفهم .. والدعوة نفسها غريبة .. فليس من المألوف أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يدعونى أحد ، لأننى عادة لا أذهب .. ولا أعتذر .. ولم أكن أعرف ماالذى يمكن عمله فى مثل هذه الدعوات .. هل أشكر الداعى ؟ هل أبعث له بورد ؟ هل أرسل له برقية ؟ . . حتى هذه الأسئلة لم تكن تخطر على بالى .. فأنا لاأذهب ، ولاأحد يلومنى على ذلك . فهم يتوقعون هذا الموقف ، أو انعدام الموقف .. ثم جاءت صاحبة الدعوة . إنها نفس الخادمة . وقبل أن أسألها كيف حدث ذلك . عرفت منها أنها إحدى بنات الصعيد ، أحبت شابا من غير دينها . وعلم أبوها . فأنذرها بالقتل . فهربت إلى مصر . وعملت خادمة . ولما مات أبوها تزوجت الشاب الذى أحبته .. ودعتنى وبعض زملاء الحديقة إلى زفافها . وذهبت .

ثم نسيت كل ذلك ..

إلى أن حضر إلى صالون العقاد ذلك الزوج . جاء وروى للأستاذ قصة حياته .. وكان الأستاذ مايزال يسترسل فى حديثه عن الذين ينامون بعمق .

وقلت أنا : أو لاينامون بعمق : إنهم أهل اليقظة العميقة .

وقلت : إن أى عمل عميق يقوم به الإنسان يريحه : فالنائم الغارق فى النوم ، كالساهر الغارق فى اليقظة .. ولاشىء يرهق الإنسان إلا أن يتغلب على النوم أو يتغلب على الأرق – قلت ذلك للأستاذ محاولا أن أتحدث عن نفسى .. ولم تكن لى قضاياه الفكرية أو السياسية .. إنما كل قضاياى هى : القراءة والفهم والقراءة والكتابة .. والطريق والطريقة .. ومرض أبى ومرض أمى .. وغرفة لى فى مدينة امبابة .. يتساقط من سقفها التراب كل ليلة .. فلابد أن أضع بينى وبين السقف صحيفة .. وأحيانا كنت أضع اللحاف على رأسى ، وأسحبه من فوق قدمى .. وكانت آمالى فى ذلك الوقت : أن يكون لى مسكن لاأسمع من جدرانه صوت الجيران .. ولاأسمع من سقفه صوت القباقيب التى تدق البلاط وتذيب السقف ترابا على رأسى .. ولاتدخل من النافذة رائحة وابور الغاز والهباب ..

ووجدت الأستاذ وهو يتحدث عن أنواع النوم ، لايعرف كيف يجىء النوم .. ولا كيف أتلقاه إذا جاء .. وكيف أكره النوم الذى أصحو منه مدفونا تحت التراب ، وكيف أكره اليقظة التى أسمع فيها الأنات المكتومة لأبى وأمى .. وكيف انهما يتنافسان فى إخفاء الألم ، حتى لايطير النوم من عينى ، وحتى لايعطلانى عن الدراسة .. وأكره النوم إذا جاء ، وأكره النهار إذا طلع .. فإذا طلع النهار كان لابد أن أهرب بسرعة عن عيون الناس .. فالبيت الذى كنت أسكنه فى امبابة جاء صاحبه وهدم الحائط المطل على الشارع .. فكانت غرفتى بثلاثة جدران .. وكثيرا ماكنت أصحو من النوم على صوت الكلاب والقطط التى دخلت غرفتى وراحت لأسباب لاأعرفها تتشاجر .. وأحيانا أرى « بنت آوى » تقفز من غرفتى إلى الأسطح المجاورة .. وكان لابد أن أصحو بسرعة وأرتدى ملابسى وأختفى عن عيون الشارع ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ودون شعور منى أصدرت كتابا فيما بعد بعنوان « يسقط الحائط الرابع » .. وكان هذا الكتاب عن المسرح .. أو الحائط الرابع الذى هو يفصل بين الممثلين والجمهور ..

هل الحائط سقط بظهور المسرح الجديد أى « مسرح العبث » الذى يستنكر الحائط الرابع الذى يفصل الممثلين عن المتفرجين ؟.. ويرى مسرح العبث أنه يجب أن تكون هناك صلة بين الممثل والمتفرج .. ولذلك وجدنا الممثلين يتحدثون إلى المتفرجين .. كأنه لايوجد فاصل وهمى .. إنما المسرح هو امتداد للحياة ، والحياة امتداد للكذب الفنى . فلا أحد لايكذب . ولا أحد لايصدق . والحياة مسرح الكاذبين ، والمسرح حياة الصادقين .. أو أننى عندما أصدرت كتابًا بهذا العنوان ، أردت أن أهتف بسقوط الحائط .. وقلت : يسقط الحائط الرابع ..

وبعد ذلك أصدرت كتابا بعنوان « الحائط والدموع » . ولم يكن هذا الكتاب إلا عن اليهود والصهيونية .. وهذا الحائط هو حائط المبكى الذى تبقى من معبد سليمان الذى انهدم مرات عديدة .. ثم أقيم ثم انهدم ولم يبق منه إلا هذا الحائط الغربى .. وإلا دموع اليهود عليه ..

وفى سنة ١٩٥٥ عندما ذهبت إلى القدس رأيت حائط المبكى ، وكان وقتها فى مدينة القدس العربية ..

ثم ذهبت إلى القدس سنة ١٩٧٩ ورأيت حائط المبكى الذى أصبح فى مدينة القدس المحتلة ..

ولم أكتشف أن سبب اختيار « الحائط » عنوانا لكتابين أن الحائط الذى سقط فى امبابة ، هو الذى مايزال عميقا فى نفسى الحزينة .. وأننى أرحت نفسى كثيرا عندما وجدت أن سقوط الحوائط : هو صميم فلسفة العبث .. وأن الحائط الباقى من معبد سليمان هو أقدس مالدى اليهود من أقداس .. وأنهم بسبب هذا الحائط التف اليهود فى كل الدنيا حول المعبد الذى سقطت جدرانه وسقفه ، فأقاموا لهم معبدا من الورق هو : التلمود .. وأقاموا لهم محيطا من الدموع .. وبالدموع تسللوا من القارات الخمس إلى فلسطين . وأقاموا لأنفسهم فى كل بيت حائطا للبكاء .. ولكنهم استطاعوا أن يجعلوا من دموعهم أحجارا وجسورا فى الأرض المحتلة ..

فما الذى يعرفه الأستاذ وهو المقيم وحده فى بيت هادئ نظيف بسيط ، وقد امتلأ بالكتب والأصدقاء ، وأعطاه الله فضلا عظيما ؟ . . إن الأستاذ – هكذا كنت أتصور – يستطيع أن يقول للنوم : تعال .. فيجىء . ويقول له : اذهب .. فيذهب .. إنه قادر على كل المتاعب .. فالمتاعب ليست إلا أفكارا ، وهو سيد أفكاره ، وسلطان مشاعره ..

وقبل أن أبتلع ريقى لعلى أجد ماأقوله للأستاذ جاء هذا الصديق الذى تزوج خادمة كانت زميلتنا فى حديقة الأسماك ، وتحدث مقاطعا الأستاذ فأنقذنى فى نفس الوقت . . قال : زوجتى ياأستاذ ..

فقال الأستاذ ضاحكا : اشمعنى ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال ولم يضحك : تركت لها أهلى .. وتركت لها دينى .. وبعت كل ماأمامى وكل ماورائى من أجلها . ورفعتها هى وإخوتها من الأرض إلى السماء .. ولكنها يا أستاذ لا ترى أننى فعلت شيئا .. وأن الذى فعلته لم يزد كثيرا عما فعله البواب .. بل إن البواب أحسن بكثير .. وتقول إنها ترى البواب من النافذة فتجده ينتظر زوجته حتى تجىء فيأكل معها .. ثم إنه قد أجلس أطفاله على ساقيه .. ولايكف عن تقبيل الأطفال إلا ليأكل . ولايكف عن الأكل إلا لكى يقبل أطفاله .. وتقول إن البواب عندما مرضت زوجته راح يجرى كالمجنون بحثا عن أحسن الأطباء .. وإننى – فى رأيها – لاأفعل شيئا من ذلك .. إننى لم أنم ياأستاذ .. حتى جهاز التكييف الذى كنت لاأنام إلا على صوته وعلى هوائه .. لم أعد أطيق أن أسمعه أو أن أراه ..

وقلت لنفسى : إنه لايعرف كيف ينام رغم وجود جهاز التكييف .. ولاأعرف فى ذلك الوقت معنى جهاز التكييف . أو حتى رأيته . ولكن لابد أنه جهاز ينام على حرارته التى تتكيف حسب رغبات صاحبه .. رغم ذلك يقول : إنه لاينام ! ! ..

ولم يشأ أن يقول للأستاذ إن زوجته كانت هاربة إلى القاهرة وعملت خادمة فى بيت السفير الإيطالى وإنها سمراء اللون خضراء العينين .. جميلة الملامح .. وإنها هى الأخرى قد ضحت من أجله ..

ولكن الأستاذ سأله : وماذا قررت يامولانا ؟.. أنت لم تقرر شيئا طبعا وإلا ماشكوت هكذا .. وإلا ماكنت هكذا عاجزا عن اتخاذ القرار .. أهى الزوجة التى أعجزتك ؟ أهم الأولاد ؟ أهو الحب الذى لايزال فى قلبك لها ؟ أهو حسن نيتها فى كل ماتفعل ؟ أهو شعورك بالعزلة .. لأنها لاتفهمك ؟..

وبلهفة قال زميلنا الذى أصبح وزيرا للتجارة قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ : نعم هو هذا ياأستاذ .. إننى أشعر أنها ليست هناك .. أو أننى لست هناك .

وضحك الأستاذ ليقول له : اسمع يامولانا . إن كنت نبياً فلست أول نبى أهين فى وطنه .. أو فى بيته .. أو فى فراشه .. فادمت قريبا جدا ، فهى لاتراك .. فإما أن ترضى بأن تكون مجهولا فى بيتك ، وإما أن تترك لها البيت . أو تجعلها هى تتركه .. ولكن إذا شئت أن تصلح الكون ، فهذا أكبر مما تطيق .. فهذه طبيعة البشر يامولانا ..

وقال الأستاذ : إن أم الزعيم السوفييتى ستالين كانت تناديه بقولها : تعال ياسوسو .. اذهب ياسوسو .. لأن اسمه يوسف ستالين . فأمه لاتعرف أن ابنها يحكم نصف الكرة الأرضية . وأنه قد أعدم ملايين الأمهات والزوجات . ولما سألوها فى إحدى المرات إن كانت تعرف بالضبط ماالذى يفعله ابنها قالت : لاأعرف .. ولكنى لاأزال أذكر أنه عندما كان شابا هجم على إحدى عربات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البريد . وقتل سائقها . واستولى على مافيها من فلوس . وهو ناعم كالقطة لاصوت له فى البيت .. هذا هو رأى أم ستالين فى ستالين ثانى اثنين يحكمان الكرة الأرضية ! ..

وكان الأستاذ العقاد جاهزا فى حديثه عن الأقارب والمقربين وكيف يرون بعضهم البعض .. ووجد فى التاريخ الفلسفى والأدبى والسياسى عشرات الأمثلة .. ماالذى كتبه إخوة نابليون عنه ؟.. وماالذى قاله عشاق أخواته البنات ؟..

وماالذى قالته زوجة الفيلسوف سقراط ..

وزوجة الأديب تولستوى .

وزوجة الأديب د . هـ . لورانس .

وابن الشاعر جيته ..

وابنة الأديب أندريه جيد ؟..

وزوجة الفيلسوف كارليل كانت أعف امرأة . . فعندما مات كشفت للعالم كله : أنها ماتزال عذراء .. وزوجها هو الفيلسوف الذى تغنى بالرجولة والبطولة والفحولة .. وبسبب هذه الأناشيد الفلسفية الصارخة أحبته أجمل فتاة فى لندن .. وتزوجته .. ووجدته هو الآخر « عذراء » مثلها تماما .. ولم تشأ أن تقول أكثر مما قالت .. ولو شاءت أن تقول لأعطتنا صورة أخرى لفلاسفة القوة . أى الذين يبشرون بالقوة . ولايملكونها .. ودعاة العنف . وهم يعانون من العجز ..

وماذا قالت أخت الفيلسوف نيتشه .. وهو فيلسوف النازية . أو فيلسوف سيادة الجنس الآرى على كل الأجناس .. وهو نبى البطولة ؟.. إن ماكتبته أخته عنه إن لم يكن فضيحة وسفالة عائلية ، فهى لم تشعر بعظمة أخيها .. إنما شعرت بأنه مريض مجنون .. وأنها كثيرا ما نصحته أن يكف عن كتابة الفلسفة ! ..

وما الذى كان من الممكن أن يقوله أخو هتلر لو عاش .. أو ابنة أخته التى أحبها . فلما حملت قتلها ؟.. أو ماالذى قالته عنه زوجته إيفا براون لأحد قراء الكف عندما سألها : هل أنت سعيدة فى حبك ؟ فكان جوابها : هل يسعد من يعيش مع هتلر؟.. إنه رجل قليلا جدا . ولكنه طفل كثيرا جدا .. وهو زعيم دائما .. وأنا أستطيع أن أعُدَّ المرات التى لمسنى فيها .. ثم قبلنى لينام . وكان ينام معظم الوقت على كتفى .. ويطير النوم من عينى وأنا أتأمل تعاستنا معا ..

ثم ماالذى قاله ابن شارلى شابلن وأخوه ؟..

وماقاله أخو أرنست همنجواى وبعد ذلك زوجته .. ثم ابنة أخيه ؟..

وما الذى قالته أم تنسى وليامز ، عندما كان الأديب الكبير يرتدى ملابس الفتيات ويتجمل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مثلهن ؟.. فى ذلك الوقت قالت أمه : إن ابنى يتحول من الرجولة إلى الأنوثة . لكى يزداد احتقارا للمرأة ..

ولم يحدث بين جميع أدباء هذا العصر أن استطاع مؤلف مسرحى أن يتناول الجنس بهذا العمق كما فعل أديب أمريكا تنسى وليامز .

وما الذى تقوله امرأة واحدة غانية غازية غاوية هى : « لو – سالومى » ؟.. هذه الفتاة اليهودية أحبها ثلاثة من عظماء العصر هم : الفيلسوف الألمانى نيتشه . وعالم النفس اليهودى النمساوى فرويد . والشاعر الألمانى التشيكى ريلكه .. أحبوها بجنون .. وكانت هى تعرف ذلك . ولايرضيها إلا أن تجمعهم معا وترى هوان القلب وعذاب العقل كيف يكون .. فركبت عربة وجعلت ثلاثتهم يتعلقون فيها ويجرونها .. أما هى فقد أمسكت الكرباج فى يدها .. ولم تكن فى حاجة إلى أن تضربهم .. فهذه الصورة فيها الكثير من الهوان والإهانة .. ولم يجد هؤلاء العظماء حرجا فى أن يفعلوا ذلك .. ولا هى دخلت التاريخ مثل هؤلاء العظماء الذين جعلتهم هكذا حقراء ! .

وماتت أديبة فلسطين ولبنان : مى زيادة ، ولم تقل كيف أحبها كل عظماء عصرها .. ماذا قالوا لها .. فنحن نعرف بعض الذى قالوا .. أما ماذا قالت لهم ، فنحن لا نعرف الكثير مما قالت ..

ولو شاءت مى زيادة أن تتخيل هى الأخرى عربة تتعلق فيها مثل هذه الخيول . أو أى حيوانات أخرى لكانت هكذا : هى تركب العربة دون أن تمسك كرباجا .. ويتعلق فى العربة : العقاد ولطفى السيد وسلامة موسى ومصطفى صادق الرافعى . ومطران خليل وطه حسين ومحمدعبد القادر حمزة .. ولكن الذى لم يشعر به هؤلاء العظماء . أن « مى زيادة » لم تكن هذه القادرة الفاجرة مثل لو سالومى .. إنما هى التى ألقت بنفسها تحت هذه العربة ليدوسها الجميع وتموت بجنون . . تتعذب بأنوثتها التى تدفقت فى الصحراء المصرية . فتساقط عليها الصقور والتفوا حولها .. فكانت عيونهم أقسى من أقلامهم : لقد كانوا جحيمها ..

تماما كما تقول الفلسفة الوجودية : إن الجحيم هو الآخرون .. عيون الآخرين .. أقلام الآخرين .. وقيود الآخرين ورغباتهم ونزواتهم والخوف منهم والخوف عليهم .. ثم الهرب منهم إلى الجنون ! ..

شىء غريب لاحظته على نفسى .. فقد أخذت حماستى تخفت .. لم أعد أتحمس كثيرا لصالون العقاد .. فقد كنت أضبط نفسى كثيرا بأننى نسيت أن اليوم هو الجمعة .. أى نسيت أن هذا هو يوم العقاد .. حدث ذلك أكثر من مرة ..

ولاحظت أننى أسرح كثيرا جدا حين يتكلم الأستاذ .. وكنت آمنا تماما .. فهو لايسأل أحدا . إنما نحن الذين نسأله .. كما أنه كان يكفينا هو هذه المشقة فيتساءل ويرد على نفسه . وهو بذلك يرد عنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السؤال والإجابة .. ومرة أفقت من سرحانى على صوت الأستاذ وهو يقول ضاحكا : اسألوا أخانا أنيس . . قل لهم يامولانا ..

وأخفيت خجلى فى فزعى . وحشرت ضحكتى بين ضحكات الآخرين ..

ثم اتجه ناحيتى ليقول : قل لهم كيف ينام الروس معا .. رجالا ونساء .

وفجأة استرجعت ماسمعته من الصديق حسن فؤاد . وتذكرت أننى قد رويت هذه الحكاية للأستاذ وأنه علق عليها طويلا بما قرأه فى الروايات الروسية القديمة عند دستويفسكى وتورجنيف . وبوشكين وغيرهم ..

وبسرعة كأننى لم أسرح . أو لأدفع عن نفسى هذه التهمة قلت : ومذكرات ماريا بشكرتسف يا أستاذ ؟

فاندهش الأستاذ لهذا الاسم . وبدا عليه أنه لايعرفه وأنه يستنكر ذلك .. ولكنه بسرعة بدا عليه الارتياح لهذا المعنى : أن الذى لايعرفه شىء لايستحق الاهتمام به ..

وأحسست أنا أيضا أن هذا الذى ذكرته شىء تافه .. وأننى أيضا . ولذلك سارعت فقلت للأستاذ : إن مذكرات ماريا بشكرتسف قد ترجمها د . عبد الرحمن بدوى .. واتخذها نموذجا للتشاؤم والعذاب والرغبة فى الموت .. واختار أيضا الأديب الإيطالى ليبوردى والأديب الروسى لرمنتوف والشاعر الألمانى نوفاليس . . وأمير الشعراء الألمان هيلدرلن الذى عاش ثمانين عاما . نصفها فى مستشفى الأمراض العقلية ..

فهل كان السرحان نوعا من الهرب ؟.. هل هو بسبب الإرهاق ؟.. هل بسبب أن الأستاذ بدأ يكرر ماسبق أن قاله . وعلى ذلك أصبحت أعرف مقدما ماسوف يقوله ؟.. صحيح أنه يقول الشىء الواحد بأشكال مختلفة . ولكن المعنى واحد . ثم إنه لايضيف إليه جديدا فى كل مرة .. هل لأنه وصفنى فى إحدى المرات بأننى من « الفلاسفة الدراويش » ؟.. أى الذين اشتغلوا بالفلسفة فغابت عقولهم ، فهم يتفلسفون بغير عقل ، أو يتفلسفون لأن الناس قد اعتادوا عليهم ، وأننى مثل عبد الرحمن بدوى وسلامة موسى والمفكر اللبنانى الملحد شبلى شميل . وكذلك منصور فهمى .. وأذكر أن الأستاذ وصف هذا الطراز من المفكرين أو الأدباء بأنهم مظهر من مظاهر انحلال الفكر . أو شيخوخة العقل ..

ولكن عندما راجعت ذاكرتى وسألت زملائى عن الذى قاله الأستاذ بالضبط . وإن كان يقصدنى حقا . اختلفوا . .

بعضهم قال : إن الأستاذ قال إن هؤلاء الفلاسفة « بتوعك » ..

يقصدنى أنا . مع أنهم ليسوا « بتوعى » فهم كبار وأنا ماأزال طالبا ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقال آخر : إن الأستاذ قال إن هؤلاء الأدعياء الذين يعجبونك .. ليسوا إلا دراويش « بريالة » أى يسيل لعابهم ويتوهمون أن هذا الذى يسيل عسل .. مع أنه بلاهة مادية ..

وإذا كان الأستاذ قد أشار بيده ناحيتى ، فلأننى كنت طالب الفلسفة الوحيد فى ذلك اليوم . ولو كان هناك طلبة آخرون أو أساتذة لوزع أصابعه علينا جميعا . إذن فالأستاذ لم يكن يقصدنى . وإن كان قد ضايقنى أنه فعل ذلك ثم أشار ناحيتى . فهل هذا هو السبب الحقيقى لضيقى بهذا الصالون ؟ ..

لاأعتقد أننى قد ضقت بالصالون أو بالأستاذ . ولكن همومى فى ذلك الوقت كانت أكبر منى — فقد اكتشفت فجأة أن الذى أدرسه لن تكون له أية نتيجة مادية . فماهو مصيرى بعد أن أتخرج فى الجامعة ؟. ماالذى فى نيتى أن أعمله ؟.. هل أمضى فى دراسة الفلسفة ؟. كيف ؟ ومن الذى يشترى لى الكتب ؟ ومن الذى يشترى الطعام والشراب ؟.. هل أصبح مدرسا فى الجامعة ؟ ولكن متى ؟ قيل لى فى ذلك الوقت إن هذا هو مصير الطالب المتفوق . وقد صرح لى أحد الأساتذة بذلك ..

ولكنى اكتشفت عجزى فى تلك الأيام عن عمل أشياء كثيرة .. إننى أمشى على قدمى ، ولا أركب الترام .. إننى أذهب إلى المكتبة العامة لأقرأ ماأتمنى قراءته من الكتب التى لا أستطيع شراءها .. إننى أنتظر طويلا حتى أحصل على ثمن دواء لأمى وأبى .. إننى لاأعرف متى يكون بناء « الحائط الرابع » .. أى متى تنسد هذه الفتحة ، أو متى تتوارى هذه الفضيحة .

ومن الصدف الغريبة التى فاتنى أن أعرف معناها : أن الساكن فوقنا .. هو الذى أصبح الساعى الجالس أمام مكتبى يوم كنت رئيسا لتحرير مجلة « الجيل » .. وكان يقول للناس ذلك ، وكنت أردد مايقول — ثم أنسى المعنى الكبير لذلك ! ..

وعاد زوج الخادمة يقرر : أنه كان يوما نحسا يوم تزوجته .. لقد كان فى يوم ١٣ من يوليو .. وعندما انتقلنا إلى السكنى فى الزمالك كان البيت رقم ١٣ .. حتى الشقة كانت رقم ١٣ .. إنها مجموعة لايمكن أن تلتقى صدفة ياأستاذ .. إنه القدر قد رتب ذلك كله .. القدر ضدى يا أستاذ ..

ولم يجد الأستاذ صعوبة فى أن يقلب هذه الأوضاع ويخرج بالمعنى الذى يريد : لاشىء اسمه القدر يامولانا . وإذا كان هناك فالدور الذى يلعبه أخطر من أن تنتقل بين ١٣ فى الزمان إلى ١٣ فى المكان .. إننى أسكن فى البيت رقم ١٣ .. ألم تلاحظ ذلك ؟.. ولو استطعت لوضعت رقم ١٣ على باب الشقة وباب كل غرفة .. ولكنى وضعت على مكتبى تمثالا « للبومة » التى يتخذها الناس رمزا للنحس أيضا .. ولم أكتف بهذا فقد اتجهت إلى الأدباء الذين يصيبون بالنحس من يقترب منهم : ابن الرومى وشوبنهور وأبى العلاء المعرى .. أما لماذا اختار الناس رقم ١٣ فهناك قصص كثيرة لامعنى لها .. أو لها معنى آخر غير الذى قصده الناس .. يقال إن ١٣ جنديا كانوا معا .. فأصابت الرصاصة الجندى رقم ١٣ . وأخطأت الجنود الآخرين .. ويقال ذلك عن ثلاثة إذا احتاجوا لأن يشعل كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منهم سيجارته .. فتجد أن واحدا قد أشعل سيجارة الثانى .. ثم يطفئ عود الكبريت .. ويشعل عودا جديدا ويقدمه للثالث .. أى أنه لايصح إشعال ثلاث سجائر بعود واحد .. ويقال إنه حدث ذلك فى إحدى الغارات الجوية ، فأصابت المدفعية الشخص الثالث .. يقال ! ..

ولكن الأستاذ كثيرا مايتحدث عن « المنطق الصارم » الذى يمسك الكون من أوله لآخره .. فكل شىء له مكان .. وكل شىء له معنى : أحقر الأشياء والمخلوقات وأعظمها أيضًا ..

وتناوبنا نحن جميعا هذه المعانى : وأنه لاتوجد صدفة . إنما يوجد ترتيب سابق . فليس من قبيل الصدفة أن يولد هو فى أسوان ، فى أقصى جنوب مصر .. وليس صدفة أن يكون من هذه الأسرة ، ولا أن يسكن فى مصر الجديدة التى تشبه فى ضوئها وحرارتها أسوان .. وليس من الصدفة أن يكون أطول إخوته .. ولامن الصدفة أن يكون زوج الخادمة قد ولد فى نفس البرج الذى ولدت فيه زوجته . بل هو قد ولد يوم ١٧ يونيو وهى أيضا .. وشهادة ميلاده تبدأ برقم ٢٢٧ وزوجته أيضا .. ولا أن يكون اسم والدته مثل اسم والدتها .. ولا أن يكون اسم المأذون هو الحاج يوسف عبد الرحمن .. وعبد الرحمن هذا . هو اسم أبيها ويوسف اسم أبيه .. إلخ ..

وهز الأستاذ رأسه بما معناه : يجوز أحيانا ..

أو لعل الأستاذ أراد أن يسلم له بشىء . إراحة لرأسه من النقاش .. أو أنه رأى أنه لاأمل فى إقناع هذا الزوج المسكين برأى آخر ..

ولكنى عرفت فيما بعد أن الأستاذ يؤمن ، أو على الأقل ليس له رأى واضح فى دلالة الأرقام عند خبراء التنجيم أو علماء الفلك أو قراء الطالع ..

وكنت أرى غير الذى يراه الأستاذ ، وكنت أول من أشار إلى أن السنة التى ولد فيها الأستاذ وهى سنة ١٨٨٩ قد ولد فيها : طه حسين وهتلر ونهرو وسالازار وشارلى شابلن واثنان من الفلاسفة الوجوديين : جبريل مارسيل ومارتن هيدجر ..

وولد الأديبان بول ناش وجان كوكتو ..

والمؤرخان الكبيران : عبد الرحمن الرافعى وأرنولد توينبى ..

وفى سنة ١٨٨٩ أقيم برج إيفل فى باريس .. واكتشف العالم الإيطالى سكباريللى أن هناك قنوات على سطح المريخ ، تؤكد أن هناك حياة ، وأن هناك كائنات عاقلة تعيش فى الفضاء الخارجى ..

وقد ولد القائد الانجليزى ولنجتون فى نفس السنة التى ولد فيها نابليون .. وكان من نصيب ولنجتون أن يهزم نابليون فى موقعة ووترلو ..

وقد ولد سنة ١٩١٨ الرئيسان جمال عبد الناصر وأنور السادات والمستشار هيلموت شميت والأديب الروسى سولجنتسين ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى سنة ١٦١٦ مات عظيمان : الشاعر شكسبير والروائى الأسبانى سرفانتس .. فهل هى الصدفة وحدها التى شاءت أن يكون هذا العدد الكبير من العظماء قد ولدوا فى سنة واحدة فى أماكن مختلفة من العالم ؟ وهل من الممكن أن تجد شبها بينهم ، وأن هذا الشبه فى الملامح الجسمية والنفسية قد أدى إلى تشابه فى الدور الفكرى والفنى والسياسى لهم جميعا ؟ ربما ..

وعاد زوج الخادمة يلقى بآخر ماعنده من متاعب . وكأن الأستاذ لم يقل شيئا .. أو كأنه لم يسمع مما قلنا شيئًا .. ولاهو يدرى إلى أين أخذنى خيالى أو ألقى بى سرحانى الطويل ، فقال الزوج الغلبان : قل لى ياأستاذ .. إذن فما هو الحب ؟ ..

وتلك قضية مفاجئة تماما ولكن الأستاذ قد اعتاد على ذلك .. واعتاد على أنه لاشىء يمكن أن يكون مفاجأة له .. فكل شىء جاهز عنده . الأسئلة والإجابة . وليس عليه إلا أن يشير فقط . فتجىء الأفكار فى خيط واحد مثل حبات السبحة .. قال : يامولانا .. إن هذا ليس سؤالا ، إنها استغاثة غرقان .. وهذا الغرقان لايريحه وهو يغرق أن يأتى له إنسان بأنبوبة اختبار تقول له كم نسبة الملوحة فى ماء البحر .. أو ماهى أنواع السمك .. أو ماهى أعماق البحر .. أو مدى قربه أو بعده عن الشاطئ .. إنما هو يريد أن ينقذه أحد .. ولو كان الذى أنقذه حوتا من الحيتان التى حدثتنا عنها « ألف ليلة وليلة » : فقد غرق أحد البحارة فأوى إلى إحدى الجزر .. وفوجئ بأن الجزيرة تتحرك .. إنها حوت .. ولو ابتلعه الحوت مثل النبى يونس عليه السلام ، فلامانع عنده مادام بطن الحوت أسلم من بطن البحر .. يامولانا لقد حارت القلوب فى الحب . وحارت العقول فى تعريف القلوب .. ولكن الشاعر الصوفى ابن عربى يقول :

حـــار أربـــاب الهوى فى الهوى وارتبكـوا !

ولاشىء يمكن أن يضاف إلى تعريف الهوى أكثر من ذلك .. فلاشىء أقل ولاشىء أكثر .. إن الهوى هو الهوى .. والشاعر أبو نواس قال أيضا :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى فوالله ماأدرى الهوى كيف يوصف

إلا إذا أردت أن تتفلسف يامولانا . وأنت الآن أدرى بماذا جرته عليك الفلسفة ؟ ..

وتشجع أحد الحاضرين وقال : ولكن شوقى حاول أن يضيف إلى بيت أبى نواس بيتا آخر فكان ركيكا وسخيفا . لقد قال شوقى :

« يقول أناس لو وصفت لنا الهوى » لعل الذى لم يعرف الحب يعرف

فقلت لقـد ذقت الهـوى ثـم ذقته « فوالله ماأدرى الهوى كيف يوصف »

ولا أعتقد أن شوقى كان سخيفا . وإن كان الأستاذ قد انتهز هذه المناسبة العابرة ليهاجم شاعرية شوقى وعنصره التركى وادعاءه الوطنية ، وادعاءه الابتكار ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبدو أن الهجوم على شوقى قد شجع زميلا آخر ليستدرج الأستاذ إلى الهجوم على رجل آخر . فقال الزميل : والله ياأستاذ لم أجد أسخف فى تعريف الحب مماقاله مصطفى صادق الرافعى فى مقدمة كتابه « السحاب الأحمر » قال الرافعى :

الحب سجدة عابد ماأرضه إلا جبينه !
أفق الملائك نفسه فى البدء كان له لعينه ! .

ثم قال : وليس أسخف من هذين البيتين إلا قول الرافعى أيضا فى نفس المقدمة :

يامن على البعد ينسانا ونذكره لسوف تذكرنا يوما وننساكا
إن الظلام الذى يجلوك ياقمر له صباح متى تدركه أخفاكا

وقد سعد الأستاذ بذلك كله ..

ولكنى لم أجد مصطفى صادق الرافعى سخيفا ولا ركيكا .. فأنا من المعجبين به والحافظين لكثير من تعبيراته الجميلة وتراكيبه البلاغية المبتكرة .

وأظن أننى الذى قلت تعليقا على ذلك بصوت مرتفع .. نعم بصوت مرتفع : ولكنه ليس سخيفا ..

وتشاء الصدفة أن تخرج منى هذه العبارة فى نفس الوقت مع زميل آخر قال : لا والله يا أستاذ ! ..

إذن فنحن الاثنان معا ، لانرى سخافة شوقى ولا ركاكة مصطفى صادق الرافعى .. أى أننا نختلف تماما مع الأستاذ فى كثير من فلسفته الأساسية فى الشعر والبلاغة وعلم الجمال . أى أننا كفرنا به وفى مواجهته ودون قدرة على إقناعه أو دون دليل نسوقه ونواجه ذلك الجيش الجرار من الحجج والبراهين التى سوف يطلقها الأستاذ علينا ..

وقد حدث ذلك ..

وكان هَوْلا عظيما ..

ولا أذكر شيئا مما قاله الأستاذ غاضبا ..

وأعتقد أننى احتميت فى سرحانى . ولم أعد أتذكر إلا القليل جدا مما تدفق به الأستاذ .. وكأنه بركان يرمينا بالشرر والحجارة ..

وكنا نسمى ذلك اليوم ، ولسنوات طويلة ـ يوم القيامة : وكنا نقول فيما بيننا حدث ذلك : ق . ق .. أى قبل القيامة .. أو ب .ق .. بعد القيامة ..

ولم يخفف من أهوال القيامة أن قال واحد أكثر منا دراية بالأستاذ : إن أروع مايقال تعليقا على مأساة صاحبنا هذا (وأشار إلى زوج الخادمة ..) ماقاله الأستاذ فى كتابه « خلاصة اليومية » :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لاتحسدن غنيا فى تنعمه قد يكثر المال مقرونا به الكدر
تصفو العيون إذا قلت مواردها والماء عند ازدياد النيل يعتكر !

ومعنى ذلك أن هذا الزميل قد حسد الرجل التعيس بزوجته التى كانت خادمة . وأعطاها كل مالديه فلم ترض بشىء من ذلك .. بل إنها تركته لواحد من صغار الموظفين – وكان زميلنا هذا غنيا . وكان لديه موظفون ..

ولم يكن الأستاذ العقاد فى حاجة إلى مزيد .. فإذا كانت المرأة من قضاياه الهامة . فإن الحب ليس أعظم قضاياه ، ولكنها الخيانة .. إنه يرى المرأة خائنة بطبعها . هل هى المرأة خائنة له .. أو أن المرأة والخيانة توأمان ؟ إننا نجد أن المرأة والخيانة توأمان فى أحاديث الأستاذ .. وإن كنا نجد شيئا آخر فى شعره أو فى كتبه .. حتى قصة « سارة » التى ليست قصة من أى نوع .. إنما هى مجموعة مقالات تحليلية .. ومن الغريب أن الأستاذ فى رواية « سارة » هذه بعد أن يصل إلى نصفها يتساءل : من هى إذن سارة ؟ ..

وجواب هذا السؤال يكون عادة فى السطور الأولى للأحداث التى تبنى هذه القصة وهذه الشخصية . ثم إن سارة هذه حيوان ساذج شهوانى .. وطبيعى أن تكون خائنة ..

لقد كان ذلك اليوم هو أطول يوم فى تاريخ صالون العقاد .. فقد انقلبت الدنيا كلها على رءوسنا .. أو حطمت رءوسنا ..

ولا أستبعد أن يكون الأستاذ قد ضاق بنا فى ذلك اليوم .. فقد تجاوز بعض الزملاء حدود الأدب ، دون قصد منهم .. بل إن بعضهم أراد أن يستعرض حبه للأستاذ . فراح يروى مايحفظ من شعره دون أن يدرى ماالمعنى الحقيقى له .. ودون أن يدرك المواجع التى حركها فى قلب الأستاذ ..

فبعد أن تحدث الأستاذ عن خيانة المرأة وأن هذا طبع من طباعها . وهو قد تحدث فى ذلك كثيرا جدا .. حتى لو ظهرت امرأة أمامنا فجأة لهجمنا عليها وقطعناها لأنها خائنة . خائنة لأحد من الناس !

ولذلك لم تكن نظرتنا فيها احترام كبير لكل من نرى من النساء ، وخاصة اللاتى يجئن إلى صالون الأستاذ . وكانت حجتنا بسيطة : كيف تقبل امرأة أن يكون هذا رأى الأستاذ فى المرأة ثم تجىء إليه ؟. إذن فهى موافقة على كل ماقال . مادامت قد ترددت عليه ، وجلست إلى جواره وتحدثت باحترام شديد .. إذن فهى خائنة . أو سوف تكون كذلك ! ..

ومن غير مناسبة واضحة تحدث واحد من تلامذة الأستاذ القدامى ومن المقربين إليه .. ويقال إنه يتناول غداءه مع الأستاذ ، وهذا يفسر أنه يظل جالسا حتى بعد أن يصافحنا الأستاذ مستأذنين فى الخروج .. وكنا نجد ذلك شيئا عجيبا . فلم نكن نعرف تماما أن المسافة بين الأستاذ وبين أحد من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناس من الممكن أن تكون أكثر من الجلوس فى الصالون ، والحديث والعودة إلى البيت على أمل اللقاء بعد أسبوع .. قال هذا التلميذ الذى سبقنا بسنوات طويلة إلى صالون العقاد .. قال وهو يهز رأسه يمينا وشمالا ويغمض عينيه : إن المرأة لاتستحق أكثر من أن يقال لها ماقلته أنت ياأستاذ :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد ؟
وألقاك جسما مستباحا . وطالما لقيتك جم الخوف . جم التردد
إذا لم يكن بد من الحان والطلى ففى غير بيت . كان بالأمس معبدى !

ومعنى ذلك أن المرأة التى أحبها وعبدها ، قد أصبحت مستباحة لكل الناس .. وأنه لايستطيع أن ينتهك حرمات هذا الجسد المقدس ، أو الذى كان مقدسا .. وإذا كان لابد من الجنس ، فليكن مع امرأة أخرى !

وعرفنا فيما بعد من هى التى نظم فيها الأستاذ هذه الأبيات – أو أن كثيرين قد ادعوا أنهم يعرفون من هى .. أى أن هناك حادثة خيانة معروفة ، وأن هذه الخيانة قد مزقت قلبه ، وحطمت كبرياءه . فكانت هذه الكلمات العنيفة ، التى جاءت فى هذه الأبيات ، ورواها التلميذ القديم مغمض العينين ..

ولم يشفع له عند الأستاذ أنه اعتذر كثيرا وطويلا عن اختيار هذه الأبيات ! !

ولكن هذا التلميذ القديم لم أره بعد ذلك إلا فى جنازة الأستاذ . لقد اختفى أكثر من عشرين عاما ! ..

هل أقول إن ذلك اليوم الطويل قد انتهى كما هى العادة عند الساعة الثانية من بعد الظهر ؟.. لاأظن أن ذلك هو ماحدث .. فقد ظل اليوم وحشا مفترسا يأكل بقية الأيام الأخرى .. وأصبح شبحا نفزع منه كلما تذكرناه .. أو كلما حاول أحد منا أن يلوى الحديث فى صالون العقاد إلى هدف شخصى . لعل الأستاذ يخفف عنه مشاكله الخاصة ..

ولكن شيئا واحدا قد أصبح واضحا لنا تماما . ولم نكن نعرف ذلك : أن الأستاذ أكثر حساسية مما نتصور .. وأنه أقل قدرة على إخفاء مايضايقه .. وأن الكثير من فشله وخيبة أمله ومرارته ، لايقوى على إخماد ناره وشراره ..

وشىء آخر : أنه أفضل له ولنا جميعا أن نتركه يقول .. وهو سيد الحديث . ولكنه ليس سيد الحوار ..

ولكن كان من الصعب علينا أن نتفادى الكلام عن طه حسين والرافعى ومحمد مندور والشيوعية والوجودية والدراسات الجامعية وأساتذتنا فى كل العلوم والفنون ..

إننى لاأزال أذكر اليوم وأفزع منه .. كأنه كان بالأمس ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أذكر أن الأستاذ العقاد روى لنا كيف كان الروائى الروسى دستويفسكى عظيما وقادرا على التأثير على القارئ . قال الأستاذ : عندما قرأت رواية « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى كنت أمسك أنفاسى .. فلما ذهب بطل الرواية وهو طالب جامعى واسمه راسكلينكوف وفى يده سكين يريد قتل صاحبة البيت .. وعندما فتح غرفتها واقترب ليقتلها كاد قلبى يقع بين ضلوعى ! ..

وأدهشنا ماقاله الأستاذ . فقد كان غريبا وعجيبا .. فلم يجرب أحد منا مثل هذه المشاعر التى « يندمج » فيها القارئ والكاتب معا ..

ولكن صدقت ماقاله الأستاذ ، عندما جلست أكتب أحداث ذلك اليوم : إنه أشق أيامنا فى صالون العقاد .. فقد صدمناه فصدمنا . وأوجعناه فأوجعنا .. ثم هو أودعنا الكثير من هموم الشباب وضلال المفكرين .. الحائرين بين الجامعة والمكتبة والشارع والبيت وصالون الأستاذ .